کاتولوس

غرامیات کاتولوس

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

تجليد صالح الاقرع
تلفون ٢٢٩٧٧

A.U.B. LIBRARY

غراميات كاتولوس

874.2
C369gA
c.1

فطحل شعراء الغزل عند الرومان

ترجمة

أمين سلامة

ماجستير فى الآداب اللاتينية واليونانية

الطبعة الأولى ١٩٥٥

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

مطبعة الاعتماد بمصر لصاحبها ٤٥٥٤٥
شارع جنينة الأكبر - عابدين

فهرست الكتاب

صفحة

إهـــداء . . . . . ح

مقـــدمة . . . . . د

الباب الأول : حياة كاتولوس ١

الباب الثانى : غرام كاتولوس بليسبيا . . ١٦

الباب الثالث : أشعار كاتولوس . . . ٤٥

الباب الرابع : قصائد كاتولوس فى حب ليسبيا . ٥٥

الباب الخامس : غراميات كاتولوس الأخرى . . ٩٦

الباب السادس : مختارات من قصائد كاتولوس . ١١٠

إهـــداء

أيها المـــلاك الطاهر
أيها القلب العـامر
أيهـا الجمـال السافر
أيها العصفور الطـــائر
أيها الروح الحـــائر
خُذْ هـــذا منى
فهو منـــك
وهو إليك.
فلئن تجـد فيه نداءً
فاسمـك فى صدره نداء،
ولئن تجد فيه ضياءً
فاسمك فى قلبه نور،
ولئن تجـد فيه سناءً
فاسمـك فى ذيله هـلال.

مقـــدمة

كانت إحدى أمنياتى أن أتناول أشعار «كاتولوس»، ذلك المتغزّل الرومانى، وأعرّف بها القارىء العربى... كانت أشعار هذا الشاعر الشاب تشير فى شتى العواطف فاتخذتها تارة عزاءً وطوراً غذائى... كانت بساطتها تعجبنى، وطرافتها تسحرنى، وندرتها تسبينى، ومضمونها يفتك بأعصابى فيطربنى حيناً وحيناً يبكينى.. وكثيراً ما كنت أتخيل كاتولوس هذا، كاتب تلك الأشعار الجميلة، فيصوّره لى خيالى شاباً مليح الوجه، واسع العينين، رضى النفس، طيب السريرة، عكس ماحملته لنا الكتب بين دفوفها فى وصفه، ووصف دعارته وإدمانه على الشراب... ونعته بما قد يشتهى ولايشتهى من ضروب الصفات...

لقد أحببت كاتولوس هذا من أشعاره، ولا أخالنى مبالغاً لو قلت إننى تمنيت الحياة فى عصره لأحظى بعشرته وأنعم بمجالسته واستمتع بعذب حديثه...

فأى قسوة هذه قد قساها القدر يوم أن حكم على كاتولوس، ذلك الشاعر الحبيب، بالموت المبكر وهو فى عنفوان الشباب... فحرمنا بذلك حلاوة أشعاره ومنعنا طلاوة غزلياته، وسلبنا هذا الروح الشاعرى النادر وذلك الفكر السليم الناضج وذاك العقل السديد المبدع؟!! فلو أن كاتولوس قد عاش طويلا، فأى إلهام

جديد كان سيتفتق عنه ذهنه وأى إبداع مبتكر كانت الأجيال ستتمشدق به ، وأى كنز من الشعر هذا الذى كنا سنحظى بقراءته اليوم . . ؟ ! !

إن قارىء كاتولوس سيلمس من أول وهلة عبقرية هذا الشاعر وسيدرك من فور مقدرته الفائقة فى التعبير والتصوير ، كما ستروقه عواطفه المتأججة وأحاسيسه الملتهبة التى تنبض بها أشعاره الغزلية حتى لتكاد تزيح لنا الستار عما يجيش بصدر هذا الشاعر من اضطرابات عاطفية كانت تهز كيانه هزاً . . .

ولقد بلغ بى حبى لمنظومتى كاتولوس عن عصفور حبيبته أننى اشتريت قفصاً به عصفور وجعلت العصفور موضع دراستى لحين من الزمان ... كنت أتأمل العصفور تارة وهو يغرد وطوراً وهو يقفز هنا وهناك فى أرجاء القفص . وكنت أحياناً أدخل يدى فى القفص وأدع العصفور يقف بين أصابعى ويطير حول يدى حتى صارت يدى تأنس لوقفات العصفور عليها وصار العصفور يطمئن إلى يدى . . . إلى أن اجتاحنى الشعور بأن العصفور قد عرف شخصى خير معرفة وأننا نبادل بعضنا حباً بحب مثلما كانت حبيبة كاتولوس تبادل عصفورها الحب ويبادلها هو بحب مماثل . . .

كان لهذا الشعور أثره الكبير عندما قمت بترجمة هاتين المنظومتين بالذات . . . فلم أكن لأحس بأننى أنقل كلمات كاتولوس اللاتينية

إلى ألفاظ عربية ، بل كنت أحس تماماً بأنني الشاعر نفسه يكتب المنظومتين من جديد باللغة العربية بعين الإحساس الذى كان قد اعتور كاتولوس يوم حاول أن يكتب قصيدتيه عن العصفور العجيب الذى هو عصفور حبيبته . . . وقد لا يصدقنى القارىء لو قلت له إننى فوجئت فى أثناء ترجمتى لهتين القصيدتين بموت العصفور ، تماماً كما مات عصفور الحبيبة . . . وإذ رأيت القفص وقد ركدت فيه الحياة بوفاة العصفور ، أحسست بوجوم غريب وبحزن دفين ، وكادت عينى تدمع كما أدمعت عيون حبيبة كاتولوس يوم مات عصفورها العزيز . . .

وأحسب أن سر الجمال الذى تنبض به أشعار كاتولوس ليس فقط ما فيه من قدرة فائقة على إثارة تباريح قلب أى متيم غرقان فى بحار الحب ، ولكن ما فيه أيضاً من قدرة على مناجاة القلوب عامة ما عمر منها بالحب وما قفر منها من كل خلجة من خلجاته . . . فما أقدره حقاً على تحريك القلوب التى قدت من صخر ، والتى لم تنعم يوماً بحب ولم تشق أبداً بلواعجه . . .

فكاتولوس ذلك الشاعر الشاب ، قد انطلق فى أشعاره إنطلاقاً حراً جعله أبعد ما يكون من التحفظ أو الإباحية ، وأقرب ما يكون من الشاعر المفطور على السجية الحرة الأبية . . تراه قد سطر مشاعره كما أحس بها دون خوف أو خجل ، وعرض مشكلة حبه كما ألمت

به دون تحفظ أو مواربة ، وصوّر خلجات قلبه خلجة بعد خلجة دون حياء أو تردد ، وتناول سعادة حبه غير ناس ما لاقاه فيه من مرارة وشقاء. وهكذا نجح شاعرنا فى تخليد اسم محبوبته على صفحات التاريخ بتلك الأبيات البسيطة القوية ، القصيرة العميقة ، وبتلك القصائد النادرة فى سموها ، الرائعة فى مضمونها ، المحكمة فى ألفاظها ، الملتهبة فى عواطفها ، المنتقاة فى قوافيها ، المبتكرة فى أوزانها ، الفريدة فى عزلياتها . . .

ولم يكن كاتولوس بالشاعر الذى يمتاز بصدق العاطفة وعمق المشاعر فحسب بل كان يمتاز أيضاً بخفة الظل وحلاوة الروح وملاحة النكتة وطرافة الفكرة . . . حتى يمكننا أن نلقبه أيضاً بالشاعر المرح الخفيف الظل .

ولا يسعنى الآن وأنا أنقل أشعار كاتولوس إلا أن ألفت نظر القارىء الكريم إلى أننى لم أنقل جميع أشعار كاتولوس ، بل اكتفيت بهذا القدر الذى يكشف لنا أولا وقبل كل شىء عن قصة غرامه بليسبيا ، والمراحل المختلفة التى مر بها هذا الحب الجارف الذى كان مدار حديث الناس فى العصر الذى عاش فيه الشاعر ... ثم ماعدا ذلك من القصائد التى تميط اللثام عن الغراميات الأخرى التى تورط فيها كاتولوس مع فتيات أخريات وهى لا تقل فى طرافتها وجمالها عن غرامه الكبير بليسبيا .

ولقد شجعتنى بساطة بعض قصائد الشاعر الأخرى على نقلها إلى العربية كى أتيح للقارىء الشرقى أن يلمس عن كثب مايتمتع به هذا الشاعر الخالد من روح خفيف ومزاح طريف وذوق سليم فى انتقاء المواضيع التى يكتب فيها . .

واليوم إذ تتحقق أمنيتى فأرى أشعار كاتولوس الغرامية منشورة على الملأ . . . يسعدنى حقاً أن تلقى هذه الأشعار عند القراء الأعزاء مالقيته عندى من مزيد تقدير وإعجاب . .

أمين سلامة

جاردن ستى فى ١٠ يوليو ١٩٥٥

الباب الأول

حياة كاتولوس

لعب الحظ دوراً رئيسياً فى تخليد أشعار كاتولوس ، ذلك الشاعر الرومانى الذى اشتهر بغزلياته ، ومن ثم فى معرفة بعض ما يجب معرفته عن حياته . فلو أن الحظ لم يحرص على صيانة النسخة الخطية الوحيدة لأشعار كاتولوس ولم يضعها فى يد أحد نساخى فيرونا Verona ، لما انتشلها هذا الأخير من الضياع والاندثار بعد أن طال الأمد على فقدانها حتى كاد المهتمون بالأدب الرومانى القديم ييأسون من العثور عليها . فلولم يقم الحظ بهذا الجميل البيّن، وهذه الخدمة الجليلة والمساعدة القيمة ، لحرمنا من عبقرية هذا الشاعر الغزلى الخفيف الظل ، ولفوّت علينا متعة الاطلاع على هذا اللون الفريد من العشق الرومانى القديم ، الذى انفردت به أشعار كاتولوس والذى قلما استطاع شاعر قبله أوبعده أن ينظمه بهذه البراعة ، وتلك البساطة ، أو هذا الجمال الشعرى الساحر الجذاب . . .

بيد أن أشعار كاتولوس، وإن كانت تميط اللثام عن حياة اللهو ودنيا الغرام إبان تلك العصور الخالية ، إلا أنها تزيح الستار أيضاً

عن الحياة العامة فى تلك الحقبة التى عاشت فيها روما قبل أن تندثر بدثار الإمبراطورية القشيب ، مصوَّرةً لنا بخيال فتى جمهورى عرك الحياة كشاب نزق وكشاعر ملهم ملتهب الأحاسيس .

وجدير بالاعتبار أنه يجب علينا ألا ننسى أصدقاء كاتولوس الآخرين الذين احترفوا مهنة الكتابة ، كما يجب ألا يغيب عن بالنا ما تعرضت له كتاباتهم وأعمالهم الأدبية من الموت المبكر ، ومن ثم نستطيع أن نستبين فضل القدر العظيم علينا وعلى أجيالنا ، بأن قيّد سبيل النجاة لكاتولوس وحده من بين حشد كتاب عصره الكثيرين فأبقاه لنا كخير قبس تستضىء به الأجيال للوقوف على أدق تفاصيل الحياة العامة فى خضم العالم الذى عاش فيه .

فمن يكون كاتولوس هذا ؟ ومن أى بيت انحدر ؟ وأى حياة تلك التى عاشها ؟ وكيف خلقت منه الأيام ذلك الشاعر المرهف الأحاسيس النقى السريرة ؟

لم يولد كاتولوس فى روما ولا فى مدينة عظيمة من مدن إيطاليا المشهورة ، ولكن فى بلدة صغيرة بأحد تخوم إيطاليا تسمى ڤيرونا ، وكانت ملتقى عدة طرق ، منها طريق جنوبى إلى بدرياكوم Bedriacum ومانتوا Mantua ، وطريق آخر شرقى صوب أكويليا Aquileia والبحر الإدرياتى ، وثالث غربى إلى ميديولانوم Mediolanum وبلاد الغال . . . . ومن ثم كانت ڤيرونا تتمتع

بمركز حيوى حربى تصبو إلى احتلاله نفوس الجيوش وتطمع عيون القواد فى السيطرة عليه .

وما يعنينا فى بحثنا هذا لا ينحصر فى أهمية مركز ڤيرونا الحربى بقدر ما ينصب على أهمية هذه البلدة كمسقط رأس الشاعر كاتولوس ، وكبقعة قد حبتها الأقدار بقسط وافر من روعة المناظر الطبيعية وسحر الطبيعة الفتان . فما لا ريب فيه أن ڤيرونا تفوق شتى بلدان إيطاليا فى هذا المضمار بالذات . . . وفى هذا يقول المستر هويلز Mr. W. D. Howells : « ما من مدينة تتمع ببقعة أروع جمالاً وأبهى رواءً من تلك التى تحتلها ڤيرونا السعيدة ، تلك البلدة التى تتنفس من هواء الجبال النقى ، والتى تلفها الثلوج فى غلالة ناصعة البياض شتاءً ، وتكسوها فى الصيف حقول الكروم الخضراء ذات العناقيد القرمزية الشهية . وفضلا عن ذلك فإنها غنية دائماً بالمرمر » .

ويجب ألا يتطرق إلى الذهن أن هويلز قد آثر المغالاة فى وصفه لڤيرونا ، بل حسبك أن تأخذ كلامه على علاته ، لأنه لم يطلب به غير إرضاء الحقيقة وتقرير الواقع ...

وليست ڤيرونا جميلة فى حد ذاتها فتخلب عقول مشاهديها ، فحسب ، بل تقع أيضاً على مسافة قريبة من جاردا Garda بحيرة بيناكوس Benacus الرومانية التى تعتبر بحق من أجمل بحيرات

إيطاليا وأكثرها فتنة للعين . ومن ثم فإن البطاح التى كانت تحيط بڤيرونا فى العصور الرومانية الغابرة ، لا تختلف كثيراً أو قليلاً عما هى عليه الآن . . . وكلها تجعل من ڤيرونا ذلك الفردوس المشرق من أشجار الكروم والزيتون والتوت ، وأغصان الغار الزكية الرائحة ، الذى له أكبر الفضل فى إذكاء أرق المشاعر القلبية فى صدر كاتولوس ، وتحبيبه فى كل صوت جميل أو منظر بهيج .

ولد كاتولوس فى ڤيرونا ، أو ربما فى إحدى ضواحيها القريبة ، وهذه الحقيقة يذكرها لنا أوفيديوس Ovidius فيما كتبه إذ يقول : « تغتبط مانتوا بڤرچيل ، وڤيرونا بكاتولوس » .

ويجمع المؤرخون على أن كاتولوس ولد فى عام ٨٤ ق.م. ، ولا يشذ عنهم غير سانت چيروم الذى يجعل تاريخ ميلاده عام ٨٧ ق . م . بدلاً من ٨٤ ق . م . . . . وعلى كل فإن كاتولوس قد ولد قبل عودة سولا Sulla من الشرق على رأس كتائبه الظافرة ليضع حداً لأعمال النهب والسلب وجرائم القتل الساتورناليا المارية Marian saturnalia .

ويحتمل أن يكون لكاتولوس شقيق واحد ، يكبره سناً ، وكان والده من رجال الحى البارزين ، ومن أصحاب النفوذ والسلطان ، حتى إنهم كانوا يضعونه وسط القائمة التى تتضمن أصدقاء يوليوس قيصر المقربين . . .

وهناك احتمال آخر بأن أباه كان أحد متعهدى الجيوش ، الذين - كما هو الأمر الآن - وجدوا فى الحرب عملاً مربحاً ، فكان يمد قوات قيصر بالآلات الحربية والمؤن ، كما كان يعمل ممثلاً لقيصر فى بيع الأسلاب الغالية فى السوق الرومانية . فلو صح هذا الاحتمال ، فإن ضيعته وبيته الريفى الذى يقع على ضفاف شبه جزيرة سيرميو Sirmio فى بحيرة جاردا ، لم يستخدمهما كاتولوس كمصيف تأوى إليه العائلة للراحة والاستجمام فحسب ، بل وكمستودع لحفظ المؤن الحربية وهى تشق طريقها نحو الغرب .

نستنتج من هذا أن كاتولوس الصغير كان يمضى فصلى الصيف والخريف من كل عام فى ذلك الجو الريفى الهادىء وسط تلك المناظر الخلابة من الخضرة اليانعة والماء العذب القراح الذى ينساب كأسلاك فضية على بسط زبرجدية تحت أشعة الشمس الدافئة . أما فصلا الشتاء والربيع فكان يقضيهما فى خضم مدينة ڤيرونا .

ومن المفهوم أن كاتولوس كان يتلقى فى المدينة دروسه فى الخطابة التى هى أهم علم كان يتضمنه برنامج التعليم الرومانى ، إلا أن الأمر فى حالة كاتولوس اختلف بعض الشىء ، فقد تلقى إلى جانب دروس الخطابة تعاليم أخرى وجدت فى نفسه هوى أعظم وميلاً فطرياً أكثر ، ألا وهى تعاليم ڤاليريوس كاتو Valerius Cato الأدبية . فإن كاتو — كما يعرفنا بذلك سويتونيوس Suetonius ،

كان يلقى فى ذلك الحين محاضراته على أبناء الأثرياء فى الأحياء المجاورة... ولا شك أن الأدب اللاتينى يدين لكاتو بأكثر مما يلاحظ أحياناً، لأنه كان أسبق الأدباء الذين عرّفوا الشعراء السكندريين بحلقات من المستمعين الرومانيين، ودرّبوا مدرسة كاملة من الشعراء الصغار الذين يسميهم شيشيرون «مُغنّى يوفوريون Cantores Euphorionis» على ثقافات من الفن السكندرى.

وليس من شك فى أن كاتولوس قد تعرّف تحت إشراف كاتو بالشعراء الأغارقة الذين عاشوا فى مختلف العصور ابتداء من هوميروس إلى كاليماخوس Callimachus، إلا أن كاتولوس لم ينسَ أن يُصدِّر إحدى أشعاره (المنظومة ٥٦) باسم أستاذه كاتو الذى مات معدماً مُعسِراً بعد أن مات هو بسنوات عديدة.

ويجب ألا يغيب عن بالنا ما كان للثراء من أثر فى شاعرنا هذا الصغير، فلقد جرفه ثراء أبيه فى تيار الغواية الذى تحرر منه زملاؤه الفقراء من طلاب العلم الذين كانوا يكبرونه سناً، ولاريب أن هناك بين أشعار كاتولوس ما يدل دلالة صريحة على نوع الحياة التى كان يحياها فى فيرونا أيام الطيش والجهل. ويحتمل أن يكون كاتولوس قد كتب أمثال هذه الأشعار كى يلفت الأنظار إليه، وحتى يغنم من ورائها ما كان يهدف إليه من صيت، كأن يشتهر فى مسقط رأسه بأنه ذلك المغامر الجسور. ولهذه الأشعار الفضل الأكبر فى اهتمام

كلوديا بكاتولوس ، بل وفى قيام تلك العلاقة الغرامية بينهما . . . ولقد كان لقاء كاتولوس بهذه السيدة فى ڤيرونا نقطة التحول الكبرى فى حياته وكتاباته . . . فلما اضطر إلى اقتفاء أثر كلوديا فى روما فى ربيع عام ٦١ ق . م . هجر كاتولوس من غير شك ملذات الريف الحقيرة وانصرف إلى عاصمة الدنيا بمباهجها الساطعة الخطيرة .

ومما لايتطرق إليه أى شك أن كلوديا كانت تلعب دوراً رئيسياً فى تلك الدسائس السياسية التى كانت موضوع حديث الناس فى كل شهر من شهور عامى ٦١ ، ٦٠ ق . م . ولكننا نفتقر إلى دليل واحد نستخلص منه أن حبيبها اليافع قد لعب فى هذه الأحداث السياسية أى دور يذكر فإن ملذات العاصمة ومباهجها قد جرفته بلا ريب إلى صنوف أخرى من الهوايات والميول . ولو حدث أن عفت نفس كاتولوس هذه الملذات لألفيناه ينعكف على الشعر يقرضه وينظمه أنغاماً وأوزاناً . . .

ولقد حدث فى روما فى ذلك الوقت ولأول مرة فى تاريخ هذه المدينة العريق ، أن قام ميل أدبى واضح بين بعض طبقات المجتمع تزعمه فى شىء من الحماس المحمود طائفة من شباب الشعراء الذين قدم معظمهم من شمال إيطاليا ويدعون « الشباب » . فانضم إلى هذه الندوة شاعرنا كاتولوس ، وسرعان ما أصبح واحداً من روادها ومن أكبر قادة رسالتها الأدبية .

كانت الروابط بين جمهرة أصدقاء كاتولوس عديدة ، وإن كان هؤلاء الأصدقاء جميعاً يدينون بالولاء إلى فاليريوس كاتو الذى أضفت عليه ليديا Lydia المزيد من الشهرة والصيت ، والكثير من الربح الوفير مما مهد له شراء البيت الريفى التوسكولى Tusculan Villa ، الذى اضطر كاتو فيما بعد إلى التنازل عنه لدائنيه... وقد كانوا جميعاً من المعجبين بالمدرسة السكندرية التى تعارض الفكرة القائلة بأنه من أول واجبات الشاعر أن يكون وطنياً ، لأنهم جميعاً كانوا مكبين على دراسة فنهم بكل معانى الجد والاهتمام، لا يبخلون بوقتهم أبداً فى أى نقاش يدور حول هذا الموضوع ، بل كثيراً ما كان يحتدم الجدل فيما بينهم حول قواعد الشعر وأسس النظم . . . ولقد انتهى بهم الأمر جميعاً إلى الهيام بالحب والغرام ، حتى أصيبوا بآلامه وتباريحه ، وبنعمائه ولذاته. ولم يتورع الذين لم يعرفوا الهوى من أن يتظاهروا بأنهم غرقى فى بحاره ... وكان من بين هؤلاء رجل من كريمونا Cremona يدعى فوريوس بيباكولوس Furius Bibaculus ، وهو الذى اشتهر فيما بعد بقذفه اللاذع فى يوليوس قيصر ، والذى يحتمل أن يكون هو نفس فوريوس الذى تناوله كاتولوس فى منظومته السادسة والعشرين والتى يأتمنه فيها على ذلك الموقف التعس الذى يعانيه بيته الريفى .

« أى فـــوريوس
إن بيتى الريفى الصغير
لا يتعرض لهجوم
لفحـات أوســتير
أو لفحات فاڤونيوس
وبورياس العـاتى
وأفيليوتيس أيضـاً
ولكنه يتعرض لعصفة
خمســة عشر ألف
ومائتى ريح باردة
فيالها من حالة جوية مفزّعة ».

وكان من بينهم أيضاً كايكيليوس Caecilius أحد مواطنى نوڤوم كوموم Novum Comum الذى كان قريباً إلى جوار الشاعر ، ولذا نجد كاتولوس يشير فى منظومته الخامسة والثلاثين إلى الربة العظيمة كوبيلى Cybele ، التى كانت لب موضوع منظومة كايكيليوس :

« إنتى يا فتـاتى
أحس بإحساسك
أنت يا من تبـذين
ربه الشعر ســافو
فإن كايكيلوس حقاً

قد صدّر قصيدته (الماجنا ماتير)
بمقـــدمة آية فى الروعـة».

أما ثالث هؤلاء فقد كان جيوس هيلڤيوس كينّا Gaius Helvius Cinna من بريكسيا Brixia ، وهو ذلك الشاعر الذى لقى حتفه خطأ على يد السابلة فى حفل دفن جثمان قيصر ، وقد ألّفَ «سميرنا» وهى ملحمة قصيرة نتيجة جهد متواصل دام تسع سنوات يروى لنا فيها كينّا غراميات مورّا Myrrha المحرّمة مع أبيها كينوراس Cinyras ، ولقد ورد ذكر كينّا وملحمته هذه فى صدر المنظومة الخامسة والتسعين من أشعار كاتولوس :

«(سميرنا) صديق كينّا
التى نُشرت أخيراً
بعد تسعة فصولِ حصادٍ
وانقضاء تسعةِ أخرى مشاتٍ
منذ الابتـــداء فيها
بينما فى عام واحد
كتب هورتينسيوس
خمسمائة ألف بيت من الشعر» .

كان هؤلاء الثلاثة غاليين ، ومن الأغراب الوافدين إلى روما. أما الأعضاء الآخرون المنتمون إلى ندوة هذا الشاعر ، فكانوا ينتسبون إلى عائلات إيطالية عريقة فى القدم . فقد كان هناك

كورنيفيكيوس Cornificius مؤلف ملحمة جلاوكوس «Glaucus» القصيرة والذى كانت أخته كورنيفيكيا شاعرة أيضاً ، وقد لقى حتفه فى ميدان القتال إبان الحروب الأهلية التى اضطرمت نيرانها فى عام ٤١ ق.م. وكان وقتذاك حاكماً على أفريقيا حيث هجره جنوده الذين اعتاد أن يسميهم «أرانب فى خوذات» . ويأتى ذكر كورنيفيكيوس هذا على لسان كاتولوس فى منظومته الثانية والثلاثين .

وكان هناك أيضاً أسينيوس پوليو الصغير Asinius Pollio من تياتى Teate ، وكانت سنه فى ذلك الوقت لا تزيد على سن فتى غض الإهاب كما تصرح بذلك منظومة كاتولوس الثانية عشرة ، وهو الذى اشتهر فيما بعد كصديق لكل من هوراتيوس Horatius وڤرچيل Virgilius .

ومن أصدقائه أيضاً مانليوس توركواتوس Manlius Torquatus ابن أحد قناصلة عام ٦٥ ق . م . الذى طار صيته فى الآفاق إثر إعدامه كورنيليوس سولا Cornelius Sulla بتهمة الاشتراك فى مؤامرة كاتيلينا Catilina ، والذى كتب كاتولوس إحدى منظوماته تكريماً لزواجه من چونيا أورونكوليا Junia Aurunculeia .

هذا فضلاً عن صديقى كاتولوس الحميمين اللذين ولدا بمحض الصدفة فى يوم واحد ، وهما ماركوس كايليوس روفوس Marcus Caelius Rufus وجيوس ليكينيوس كالڤوس Caius Licinius Calvus .

لم يتمتع واحد من هؤلاء بما كان يتمتع به كاتولوس ، من الذكاء والعبقرية غير كالفوس الذى طبق صيته الآفاق لا كشاعر فحسب بل وكخطيب مفوّه . ورغم أنه كان قصير القامة فقد كان ألد منافسى شيشيرون .

ولقد كان حديثه ضد فاتينيوس شديد الوقع حتى إن المدعى عليه التمس صاح فى هيئة المحلفين : « أيها الأخيار ، أيحق أن أتهم بفضل فصاحة خصمى ؟ ! » . أما أشعاره وهجائياته السياسية فليس لدينا منها إلا كسر تدعو إلى الرثاء ، ولم يكن من بينها ما يدعو حقاً إلى الإعجاب وما يتصف بالروعة والجمال غير البيتين اللذين كتبهما عن پومپى ، واللذين يفوقان فى عنفهما ما كتبه كاتولوس فى هجاء قيصر :

« عظيمنا الذى يخشاه العُتاه
يحك رأســـــه بأصبعه
ماذا يريد ، واعجباه ؟
لعله يهوى رفيقة لمضجعه » .

ويضع هوراتيوس وأوڤيديوس الشاعرين فى مرتبة واحدة ، أما موت كالفوس المبكر فى سن الخامسة والثلاثين فقد كان فجيعة للأدب اللاتينى لا تقل عن فجيعته بموت كاتولوس نفسه .

وكان مصدر غبطة هذه الجماعة من الشعراء الناشئين أن نشر كاتولوس أول كتيب له فى عام ٦٠ ق.م. وكان يتضمن مجموعة من

أشعاره الأولى فى لسبيا وبعض محاولات شاعر ڤيرونا إبان ميعة الصبا ونعومة الظفر . ولقد صدّر كاتولوس كتيبه هذا بمقدمة هى القطعة الأولى من منظومات الشاعر المترجمة بهذا الكتاب ، ومنها يُفهم أن الشاعر يصدّر كتابه لأبرز شخصية غاليّة كانت فى روما وقتذاك ، ألاوهى شخصية كورنيليوس نيپوس Cornelius Nepos المؤلف المشهور الذى كتب كتابَىْ «حياة مشاهير الرجال» و«تاريخ العالم» والذى لم تخرج كلمات كاتولوس عن مديحه وتمجيده ، الأمر الذى دفع نيپوس إلى رد هذا الجميل فيما بعد بجميل مماثل ، فلم ينسَ عند الكلام عن «حياة أتيكوس Atticus» أن يضع كاتولوس فى قائمة واحدة مع لوكريتيوس Lucretius كأعظم شعراء عصرهما .

ولقد قضى كاتولوس معظم السنوات الثلاث التالية إما فى روما أو بايای Baiae أو فى بعض الأماكن الأخرى التى يجد فيها الإنسان المتعة والسرور ، مكرساً بعض الوقت كما نعتقد لكتابة الشعر ، هذا وإن كان شغله الشاغل إبانها انحصر فى كلوديا وفى تلك الجماعة من الشباب المرح الوثاب أمثال ڤاروس Varus وفلاڤيوس Flavius وكاميريوس Camerius ونسائهم .

وفى هذا الوقت بالذات تقع أحداث سياسية ، ذلك لأن پومپى وكراسّوس Crassus وقيصر ، كانوا قد غامروا بمواردهم من الجنود والمال والحنكة ضد الدستور القديم ، كما أصبح قيصر فى عام

٥٩ ق . م . قنصلاً ، وذهب فى العام التالى إلى بلاد الغال ليتبوأ هناك منصباً دائماً لمدة خمس سنوات . وفى ربيع نفس العام دبّر كلوديوس خطة لنفى شيشيرون ، كما بدأ فى روما الاعتماد على حكم العامة العنيف رغم أنف بومبى ، واستمر ذلك ثمانية عشر شهراً كاملة .

بيد أن هذه الأحداث السياسية كلها لم تكن لتثير كاتولوس أو على الأصح كانت فى المرتبة الثانية بالنسبة إلى شئونه الشخصية . غير أن الأزمة التى أصابت ثروته الخاصة ، كانت وحدها العامل الأول الذى دفع كاتولوس إلى أن يقبل هو وهيلفيوس كينّا Helvius Cinna منصباً ضمن هيئة العاملين مع جيوس ميميوس Caius Memmius مالك بيثينيا .

وكان ميميوس هذا الذى صُدّرت باسمه منظومة لوكريتيوس عن طبيعة الأشياء De rerum natura ، من غواة الشعر كزميله كالپورنيوس پيسو Calpurnius Piso قنصل مقدونيا السابق وكان قد انضم إليه فى ذلك الوقت صديقان آخران من أصدقاء كاتولوس هما ڤيرانيوس Veranius وفابولّوس Fabullus ، ويحتمل أن الحاكمين قد اعتبرا تعيينهما هذا دليلا قاطعاً على إخلاصهما للأدب .

ولكن الأمر فى حال الأربعة يشير إلى أن المجد المكتسب يفوق الربح المقتنى .

ولقد أمضى كاتولوس عاماً واحداً فى وظيفته ، ثم عاد فى ربيع

عام ٥٦ ق.م. ساخطاً حانقاً، وكان قد اشترى لأجل هذه الرحلة ذلك الزورق السريع الذى وصفه لنا فى المنظومة الرابعة، والذى كان فى مقدوره أن يجلبه من أماستريس Amastris، ميناها الأول إلى البروبونطيس Propontis . . . فلما ركب كاتولوس ظهر زورقه فى كيوس Cios . زار أولاً وقبل كل شىء قبر أخيه فى طرود Troad وبعد أن مرّ بمدن سواحل آسيا الصغرى المشهورة عبر بحر إيجة عن طريق رودس وديلوس وكيكلاديس Cyclades إلى مضيق كورنثة، ثم نقل الزورق إلى خليج كورنثه ليبحر شمالاً عبر البحر الإدرياتيكى، ومن هناك عبر نهر البو Po ومينيكيو Minicio إلى حيث بحيرة جاردا .

ويبدو أن كاتولوس أمضى العامين الأخيرين من حياته فى سيرميو وڤيرونا، ولم يخلُ الأمر من زيارات خاطفة إلى روما مفكراً، كما فعل كيتس Keats من بعده، فى موت شقيقه وفى حبه التعس، آملاً أن ينسى أحزانه بالدرس وقرض الشعر . . . ولهذه الحقبة من الزمان ينتمى عدد لا يستهان به من أشعار كاتولوس القصيرة أفضلها منظومته عن «أكمى وسيپتيميوس Acme& Septimius»، وأردؤها ما كتبه عن مامورّا Mamurra، ويتجلى فيه ما بين الشاعر ومامورّا من تحامل شخصى محض مردّه أميانا Ameana تلك السيدة التى كان بينها وبين الفضيلة حب مفقود، كما كانت ذات يوم موضوع حب كاتولوس حتى هجرته إلى أحضان القائد . . .

الباب الثانى

غرام كاتولوس بليسبيا

تداعب قصص الغرام بسحرها المغرى خيال الشباب والشيوخ من الجنسين فتجيش لها أقوى العواطف كما يستجيب لها أكثر المشاعر العالمية . . بيد أنه عندما تكون المحبوبة من ألمع شخصيات عصرها فإن نفوذها لا ينبسط على المسرح السياسى فحسب بل وعلى المجتمع أيضاً فيبلغ نفوذها شأواً لا يقل فى عظمته عن خطورته فيزداد الأمر عندئذ أهمية ويكون لأدق التفاصيل فى حياة الحبيبة الخاصة قيمتها البالغة لدى المؤرخ والتربوى . فإن حدث وكان الطرف الثانى شاعراً غرامياً، فإنه يسجل فى أشعاره جميع مراحل علاقته الغرامية منذ أول لحظة من لحظات الطرب والسرور إلى آخر شقوة من شقوات الحب الفاشل دون أن يترك أى نقد أدبى لشعره مهما أشد الاهتمام بالتعبير الدقيق عن كل خلجة من خلجات الحس حتى تبدو صورة رائعة للمشاعر والعواطف الإنسانية ، مجسمة ناطقة . . . فلعل هذا وحده من الأسباب الأولى التى تجعل من قصة غرام ليسبيا وكاتولوس موضوعاً جديراً بالتسجيل وقصة خليقة بالذكر،

ورواية غرامية تتجاوب مع العواطف الإنسانية الرقيقة ، وإن كانت لا تخلو من تباريح الهوى ومن النيران المتأججة المستعرة التى يكوى بها قلب كل محب . . . ولعل غرام كاتولوس هو الذى صدق فيه قول الشاعر العربى :

سلنى عن الحب يا من ليس يعلمه
ما أطيب الحب لولا أنه نكد
طعمان حلو ومر ليس يعدله
فى حلق ذائقة مرٌ ولا شهد

أو قول زميله :

سلنى عن الحب يا من ليس يعلمه
عندى من الحب إن ساءلتنى خبر
إنى امرؤ بالهوى ما زلت مشتهراً
لاقيت فيه الذى لم يلقه بشر
الحب أوله عذب مذاقته
لكن آخره التنغيص والكدر

فقد كان غرام كاتولوس حقاً مزيجاً من الحنظل والشهد ، خليطاً من المسرات القلبية والآلام النفسية... ولقد تولى كاتولوس فى أشعاره تسجيل مشاعره هذه فى غير حياء ولا خجل ، وفى صراحة تدعو إلى العجب ، ودقة تثير الدهشة ، وبساطة ترفع من

شأن شاعرنا الولهان وتجعله رائداً أول بين شعراء الغرام عند الرومان وتبوئه عرشهم أجمعين كأول من جاهر بأحاسيسه الغرامية ، وأصدق من صرح بما يعانيه من تباريح العشق وما يقاسيه من آلام الغرام ومن جفاء الحبيب وصدوده اللعين . حتى إن قصة غرام الشاعر راحت تجرى من فم إلى فم وطفقت تنتقل من دار إلى دار حتى صارت مدار حديث المجالس والمجتمعات وأصبحت مضرب المثل بين سكان المدينة ، ومقياس العشق كلما عرض ذكر للعشق الرومانى على لسان أحد . . . إن كل قارىء لأشعار كاتولوس الغرامية لن يغيب عليه قط مأساة الشاعر الغرامية ولن يعجز عن تفهم مدى أثر ذلك فى حياته وقلمه ، كأن كاتولوس وهو يسجل أشعاره فى حب ليسبيا لا يردد قول أحد غير قول الذى أنشد :

يأيها الرجل المعذب بالهوى
إنى بأحوال الهوى لعليم
الحب صاحبه يبيت مسهداً
فيطير منه فؤاده ويهيم
والحب داء قد تضمنه الحشا
بين الجوانح والضلوع مقيم
والحب لا يخفى وإن أخفيته
إن البكاء على الحبيب يدوم

والحب فيه حلاوة ومرارة

والحب فيـــه شقاوة ونعيم

والحب أهون مايكون مبرح

والحب أصغر مايكون عظيم

أحب كاتولوس ليسبيا . . . أحبها حباً جارفاً ملك عليه شغاف قلبه فكان حباً نقياً كماء الغمام ، طاهراً كصحائف الأبرار ، عظيماً كموج البحر ، فأحس بليسبيا كأنها فى دمه نور ، وفى كيانه سحر ، وفى حياته رجاء وأمل .

فمن تكون ليسبيا هذه ؟ وكيف وقع كاتولوس فى حبها ؟

لم تكن ليسبيا حرة طليقة ، أى لم تكن عذراء فتية ، ولا بكراً نقيه . . بل كانت امرأة ، أو قل زوجة تنتمى إلى طبقة دونجوانات روما . . ولم تكن زوجة رجل مغمور أو بعل من عامة الشعب ، بل كانت زوجة كوينتوس كايكيليوس ميتيلوس كيلير Quintus Caicilius Metelus Celer وابنة أپيوس كلوديوس پولكر Appius Claudius Pulcher ، وشقيقة پوبليوس كلوديوس Publius Clodius ... ولم تكن امرأة بسيطة الشأن أو خاملة الذكر ، بل كانت من أقطاب عصرها ، ومن مشاهير بنات جنسها . . لم تكن ليسبيا امرأة ساذجة ، بل كانت لغزاً أنثوياً حياً ممثلا فى غادة ماكرة غزلة لعوب ، تعرف كيف تأسر فى ثقة ، وتجذب فى سكينة ،

وتفتن فى صمت ، وتستميل فى إغراء هادىء مطمئن عميق لايكشف سرها ولا يميط اللثام أبداً عن حقيقة شخصيتها ، لقد كانت ذئباً فى فراء حمل وادع .

لم يكن « ليسبيا » الإسم الحقيقى لتلك السيدة التى ألهبت قريحة كاتولوس كما أشعلت بالحب قلبه ، بل هو الإسم الذى استخدمه الشاعر فى قصائده كلما أراد أن يعنى حبيبته « كلوديا » .

أما الأدلة على أن ليسبيا هى كلوديا نفسها ، فليست قليلة ، وكلها فى متناول أيدينا . فلقد ذكر لنا أوفيديوس فى منظومته « تريستيا Tristia » مايؤكد أن كاتولوس كان يستخدم إسم « ليسبيا » على سبيل الكناية : « كثيراً ما كان يترنم كاتولوس السعيد بحبيبته ويسميها بالاسم الزائف « ليسبيا » .

أما أبوليوس Apuleius أحد كتاب القرن الثانى للميلاد فيؤكد بصفة قاطعة أن « ليسبيا » هى « كلوديا » ولا أحد غير « كلوديا » ، إذ يقول « دعهم يلومون كاتولوس لاستعماله الاسم « ليسبيا » كناية عن « كلوديا » .

غير أن كاتولوس فى منظومته التاسعة والسبعين يحدثنا عن شقيق لليسبيا يدعى « ليسبيوس » ويسميه « پولكر » أى « الفتى الجميل » وهذه هى الدعابة التى كثيراً ما كان يلجأ إليها شيشيرون مع

الاسم كوديوس ، وإن كان بدوره يشير من طرف خفى إلى إثم العلاقة الوثيقة التى بين الحبيبين .

كذلك نجد كاتولوس فى المنظومة السابعة والسبعين التى كتبها فى عام ٥٨ ق.م يسب صديقه روفوس الذى سرق منه أغلى ما كان يملك .

وفى هذا العام بالذات ، أى بعد موت ميتيليوس ، كما علمنا من خطبة لشيشيرون دفاعاً عن كايليوس Pre Caelio إذ كان ماركوس كايليوس روفوس يعيش مع كلوديا فى بيتها فوق تل البلاتين .

والآن يمكننا دون أى عناء أن نكشف الستار عن مسرحية كاتولوس الغرامية وعن شخصيات أبطالها المبرزين ، كما يمكننا أن نذكرهم بأسمائهم الحقيقية دون حاجة إلى أسماء مستعارة . . . أما البطلان فهما كاتولوس وكلوديا . . . يعاونهما فى أداء المسرحية ميتيلوس زوج البطلة ، وكايليوس روفوس أصدق أصدقاء البطل . . . ومن كان يمثل الجوقة بكل مستلزماتها من الإسهاب والتطويل ، فهو المحامى المشهور والسياسى الداهية ، ونابغة زمانه ماركوس توليوس شيشيرون . ولا يجب أن يغيب عن بالنا أن تلك الزوجة وذلك الزوج كانا ينتميان إلى عائلتين من أعرق العائلات الرومانية نسباً وأكرمها محتداً . وأن الشخصيات الخمس رغم ما فى مسلكهم من

تلون صارخ ، كانوا يحتلون أرفع المناصب فى المجتمع ، كما أنهم قضوا حياتهم وهم محط أنظار العامة والخاصة ، لا تكف الألسنة عن ذكرهم والإشادة بمآثرهم حتى طبقت شهرتهم الآفاق .

كان أهم مظهر من مظاهر سلوك طبقة أرستقراط الرومان القدماء ، هو تمسكهم الشديد بتقاليد العائلة التى ينتمون إليها وبعاداتها... فمن مميزات عائلة كلوديا مثلا الاعتداد بالنفس الذى هو أقرب إلى الكبرياء والغطرسة ، والاحتقار الشديد للرأى العام ... هذا فضلا عن كفاءة خاصة ، أدبية وفنية لا يتمتع بها غيرهم من أبناء أمتهم ... فلقد كان من بين أسلاف كلوديا ، الحكام العشرة المتغطرسون الذين تدين إليهم روما بالألواح الأثنى عشر ، مصدر قانونها ووحيه ، وذلك الرقيب الأعمى الذى شيد طريق أپيا Appian Way وخزان أپيا Appian Aqueduct ، وأحد أوائل المؤلفين اللاتينيين ، وتلك العذراء الڤيستالية التى شهدت لها السموات بالعفة والطهارة .

وكانت كلوديا نفسها تتمتع بنصيب وافر من تلك العبقرية الخارقة التى أكسبت عائلتها ذلك المجد الرفيع والاحترام العظيم ...

فمن الجلى إذن أن كلوديا قامت بثورة ضد التقاليد والعرف ، ولو أنه كان فى مقدورها بحال من الأحوال أن تنال السعادة فى حياتها الزوجية ، لكانت قد وُفقت إلى شريك أكثر لياقة فى

شخص رجل له مثل عبقرية شيشيرون القادر وحده على الوصول إلى مدارك فهمها . . . وما كان لها أن تتزوج محض جندى كميتيلوس الذى تزوجته .

أما إذا ذكرنا شيئاً عن طبائع عائلة ميتيلوس فأنسب لفظ للتعبير عن هذه الطباع جملة هو لفظ « الصرامة gravitas » الذى يستخدم فى اللغة اللاتينية كمرادف لكلمة « حماقة » أو « غباء » ولقد زوّدت عائلة ميتيلوس الدولة لأجيال عديدة بسلسلة متواصلة من السياسيين المحافظين والإداريين المتزمتين والقادة الصارمين . ولقد حدث أن أحد أفراد عائلة ميتيلوس ألقى بالشاعر نايفيوس Naevius فى غياهب السجون لأنه جرؤ على انتقاد سلطته إبان الحرب البونية Punic War ، وتزعم ميتيلوس آخر حركة المقاومة العنيفة التى أباحها مجلس الشيوخ ضد التشريع الجراكهى Gracchan Legislation ... هذا فضلا عن ميتيلوس الذى قاد دفة الحرب ضد يوجورثا Iugurtha فى ذلك الأسلوب البطىء حتى ألفى نفسه ، وقد ألم به حزن شديد ، قد حل محله ماريوس المحدث... وكان كوينتوس كايكيليوس ميتيلوس كيلير زوج كلوديا ينتمى إلى هذا البيت الرومانى وتسرى فى دمائه تلك النزعة التحفظية المتزمتة .

كان ميتيلوس هذا أحمق ، ولكنه كان عنيداً ، وكان فى حياته

الخاصة سمجاً فظاً ، وإن كان فى حياته العامة وقوراً جداً ورزيناً للغاية . . لقد كان مع جموع الشعب وقحاً متغطرساً ، بينما كان مع أبناء عشيرته لطيفاً رقيقاً . . .

وإن أردت الحق ، فإن ميتيلوس كان مثلاً صادقاً للأرستقراطى الرومانى القديم ، ولذلك الزوج العاجز عن السيطرة على امرأة جديدة كزوجته ، الفاشل فى شق طريقه عبر خضم السياسة المضطربة . فالسياسة العملية — أى المتضمنة أولاً وقبل كل شىء ، معرفة الطريق الذى سيسلكه الناس فى إعطاء أصواتهم قبل التصويت بفترة من الزمان — قد أثارت مشكلة عويصة فى عصره ، كان حلها فوق طاقة رجل له ذكاؤه ونباهته .

ومع ذلك فقد كان ميتيلوس رجلا له بعض الصفات القوية . ففى عام ٦٣ ق . م . لعب دوراً بارزاً فى تحطيم قوات كاتيلينا المسلحة ، فكافأة شيشيرون على ذلك بأن وكل إليه فى العام التالى حكم غاليا كيسالپين Cisalpine Gaul ، إذ رأى شيشيرون أن الصالح العام يتطلب منه أن يبقى هو فى روما . ومن ثم فى ربيع عام ٦٢ ق . م . رحل ميتيلوس ومعه زوجته إلى تلك الولاية ، ويحتمل أن يكون بعد مضى بعض الوقت فى حكم هذه الولاية ، قد التقى حبيبانا فى ڤيرونا وبدءا غرامهما الذى تكشف أشعار

الشاعر عن الكثير من مراحله والتغيرات التى اكتنفته . . .

كان كاتولوس فى ذلك الوقت فى الثانية والعشرين من عمره ، أى أنه كان فى السن التى تمكنه من التعرض لبعض التجارب البسيطة فى الحب مع بعض العذارى اللطيفات المعشر من أمثال إپسيثيلا Ipsithilla وأوفيلينا Aufilena ، ولكنه كان صغير السن من غير شك ، وفى غاية السذاجة . ومن ثم لم يقو أمام حب هذه المرأة الرومانية العظيمة ، التى تنازلت فخصته هو دون غيره بنظرات الحب ولمحات الهيام ، فجرفته فى تيارها واكتسحته بسحرها وأوقعته فى حبائلها حتى الثمالة . . . وكانت سن كلوديا نفسها تزيد على سن كاتولوس بما يقرب من العشر سنوات ، فقد كانت تقترب من ذلك السن الذى يسميه أوفيديوس سن الفتنة والجاذبية ، امرأة فى سن الثلاثين ، كما كانت قطعة من الإغراء. الفتان ، بديعة فريدة المثال، أشبه بالبدر المنير بين النجوم السواطع ، ذات وجه صبوح وعينين دعجاوين . فى وجهها هدوء . وفى عينها صفاء . ولصورتها رواء . هيفاء متناسبة الطول معتدلة القد ، مرفوعة الرأس دائماً . لايبدو وجهها الا مليحاً صبوحاً واضحاً . . تسير فى طريقها فلا تنحرف ولا تميل . . كاملة بارعة تعزف لحناً ساحراً . فتجذب بظاهر فتنتها قلباً بعد قلب . . وكان عنقها الأتلع المستدير يشبه برجاً من اللجين الخالص ، وذراعها البضة تشبه فرعاً مجيداً من

شجرة مباركة كل ورقة فيها تفيض بالبهاء والنور .. وكان جبينها ناصعاً كالصراحة ، ونظراتها باترة كالعزيمة ، ولمعة تفكيرها العبقرى تجثم فى عمق عينيها كما يجثم سر الحياة الكبرى فى مقدس بدنها الغض الجميل .. أسنانها بيضاء كياسمين منضد ، صقيلة لماعة كأندر العاج وأغلاه .. ممشوقة القوام فى شموخ ساطع ، جريئة الروح فى اتقاد ناضر ، مشبوبة القلب ، مضطرمة العاطفة ، أهدابها كحيلة سوداء ذات وطف ، ثغرها دقيق عذب المراشف ، قد فرع عودها وبرز نهداها المشمران المتحلبان نعيماً ، كما استدار وجهها وتلألأ جبينها المشرق كأنه الهلال الوليد يطل من الأفق .

كانت كلوديا إذن مثلاً صارخاً من الجمال الإيطالى الذى كان يتخذه بعض الفنانين نموذجاً حياً لهم فى فنهم . هذا وإن كان كاتولوس لم يذكر لنا فى أشعاره من أوصاف كلوديا الجسدية إلا النذر اليسير عن قدمها الدقيقة ، ويدها المستدقة ، وأنفها الصغير المستقيم وعيونها السوداء اللامعة .

أما شيشيرن الذى كان يعرفها معرفة جيدة ، والذى فكر ملياً فى الطلاق من زوجته تيرينتيا Terentia من أجل الزواج منها ، فقد اعتاد أن يصفها دائماً بتلك الصفة الهومرية المشهورة « ذات عيون المها » التى تنسب دائماً لملكة السموات .. ولا شك أن كلوديا قد بدت لكاتولوس فى بادىء الأمر كأنها چونو Juno

متجسدة ، لها جمال وجلال زوجة چوپيتر Jupiter ملك الأرباب والبشر .

كانت القصيدة الحادية والخمسون هى أول القصائد التى كتبها كاتولوس فى حبيبته كلوديا ، وفيها يصف مشاعر المتعبد المتحمس فى حضرة معبوده ، وهى ولا شك تعبر تعبيراً صريحاً عن عواطف وخلجات صادقة . . ويحتمل أن فارق السن والشباب هو الذى دفع كاتولوس إلى اقتباس آراء وكلمات شاعر آخر واستخدامها لتحقيق مآربه . . فهذه القصيدة محض ترجمة لإحدى أشعار سافو Sappho الخالدة وهى من حيث الشكل ناجحة كأى ترجمة يمكن أن تتم لقصيدة من قصائد سافو ، وهى فى كلمات أخرى فشل كان للقضاء والقدر دخل كبير فيه . أما عن الفكرة فيحتمل أن كاتولوس قد تعذر عليه أن يلمس أن نوع حب سافو لصديقها يختلف تمام الاختلاف عن حبه هو لكلوديا . ولكنه يرى أن الأصل قد كتب لفتاة من ليسبوس Lesbos ، ومن ثم فهو يزج بالاسم « ليسبيا » الذى راح يستخدمه فى جميع أشعاره كاسم مستعار لحبيبته .

ويحق لنا أن نفترض أن هذه القصيدة الأولى فى التودد والتقرب كانت كافية لكى تغمر قلب السيدة بالغبطة والسرور . ولقد سُمح للشاعر أن يتعرف إليها وأن يتقرب منها ، ومن ثم فإن

القصيدة التالية قد صدّرها الشاعر بذكر عصفور حبيبته الأليف الذى اعتادت أن تتركه يقفز على نحرها وفى حجرها .... ولعل هذه القصيدة هى التى جعلت مارتيالوس Martialus يسمى كاتولوس «مؤلف قصيدة العصفور» ...

أما حياة العصفور فقد جُعلت كأقصر ما يكون ، شأنها فى ذلك شأن عواطف كلوديا نفسها . وفى القصيدة الثالثة التى ملأها الشاعر بألفاظ التصغير وتعبيرات الإغراء والتقدير ، سُجلت وفاة العصفور المسكين .

فهذه القصائد الثلاث الأولى التى يحتمل أن يكون كاتولوس قد كتبها فى ڤيرونا ، لا تظهر كاتولوس إلا كمعجب متحمس وكمحب برىء ساذج .

أما فى قصيدة « القبلات » وفى قصيدة « الدعوة إلى الحب » المحتمل كتابتهما فى روما حيث كان الشاعر قد تبع كلوديا فى عام ٦١ ق . م . فإن كاتولوس يبدو فيهما فى شخصية المحب الذى حظى حبه بالقبول ، كما أنه قد عبر فيهما أحسن تعبير عن سرور الشاب الولهان الغارق فى الحب إلى الآذان .

فهذه القصائد الخمس هى أول سجل لمظاهر حب كاتولوس السعيد .

وفى سذاجة الشاب اليافع ، اعتبر كاتولوس أن من حقه أن

تنسى كلوديا من أجله واجبها نحو ميتيلوس ، ولكنها عندما بدأت تمارس حرية الاختيار التى كان الرجال يدعونها دائماً إلى أنفسهم ، وما أن بدأت تسأم وتمل عشقه الحار ، مفضلة عليه آخرين من المعجبين بها ، فإن آراء كاتولوس فى الإخلاص تطورت وتغيرت . وبعد ذلك ببضع سنين حاول كاتولوس فى القصيدة الثامنة والستين أن يستعيد أولى جذوات حبه فصوّر إحدى مقابلاته السرية مع حبيبته فى بيت صديقه أليوس Allius ونراه يتخيل نفسه محباً صبوراً رضى الأخلاق :

« أعرف أننى لا أستطيع أن أكون حبيبها الأوحد
وأنه يجب على أن أتحمل ضعفها فى رقة وكياسة
فلست من صنف الزوج الغيور
فإن تلك هى حصيفة ، فلسوف أكون أنا أعمى » .

ولكنه فى حقيقة الأمر لم يكن أعمى ولا رضى الأخلاق ، كما أنه كان بعيداً كل البعد عن السعادة . .

هذا إلى أن الوضع فى روما اختلف كل الاختلاف عنه فى فيرونا . ففى العاصمة لم يكن المشكل الذى يواجه المرأة منحصراً فى الكيفية التى تقضى بها وقتها ، بل كان بالأحرى مقصوراً على وسيلة إيجاد الوقت لتلك المسرات التي لا حصر لها ، وتلك المشاغل التى كانت تملأ أيامها .. لم يكن جل همها إزاحة الستار عن حبيب

واحد لائق ، بل كيفية المحافظة على زمرة من المغازلين الشغوفين فى حالة من الغبطة والسرور . وفى عام ٦٠ ق . م . أصبح ميتيلوس قنصلا ، فتركزت جميع جهوده فى أن يضع بومبى فى مكانه اللائق ، وهكذا قلّت أمامه الفرص والمناسبات عنها فى أى وقت آخر لتلك المراقبة الزوجية التى كانت كلوديا فى مسيس الحاجة الشديدة إليها . لقد كانت كلوديا محاطة بهالة من الشباب اليـــافع ، الذين وجد كاتولوس فى أغلبهم منافسين ألداء له فى حب كلوديا . ولعل هذا يوضح لنا شيئاً عن طبيعة كلوديا وكيف استطاعت أن تعذب محباً شديد المراس ، كما أزاح الستار عن هذا كاتولوس نفسه . . . فيصرّ كاتولوس على اعتبار كلوديا إحدى ممتلكاته ، ويصر على ذلك بطريقة تدعو إلى الضحك والسخرية ، إن لم تكن تدعو إلى الرثاء أيضاً . . فنراه يحذر فى شىء من الجد والصرامة المعتدين على حبه والمنتهكين حرمته من أمثال كوينتيوس Quintius ورافيدوس Ravidus وجيليوس Gellius متظاهراً كمن له الصولة والسلطان ، غير عانىء بكرامة زوج مسئول ، لابساً رداء المحب المتغطرس الولهان . . فليس بمستعجب إذن ولا بمستغرب أبداً أن تتعدد المنازعات والمشاجرات ، وأن تكفل لنا القصائد التى كتبها كاتولوس عن ليسبيا إبان عام ٦٠ ق . م . تاريخاً مريراً لتلك التعنيفات المريرة

واللائمات القاسية ، فضلا عن مناسبات الوفاق القصيرة الأمد ، ومرات الوئام والانسجام القليلة العدد .

وعلى كل فقد كان على كلوديا إبان حياة ميتيلوس ، أن تحافظ على احترام معين للمظاهر ، فضلا عن أن واجباتها الزوجية قد زودتها بلا شك بحجة مريحة للتعامل مع مغازل ولهان قد برّح به الهوى . . ولكن فى عام ٥٩ ق . م . وقعت حادثة ألحقت بموقفها تغييراً كبيراً ملحوظاً . . فميتيلوس وقد أنهكه ما كان يكتنف السياسات الرومانية من تعقيدات لا مثيل لها ، قد مات فجأة ، وإذ انتقلت كلوديا إلى الإشراف الإسمى على أخيها سكستوس كلوديوس بولكر ، ألد أعداء شيشيرون ، فقد أضحت مستقلة تمام الاستقلال كأرملة فى سن الخامسة والثلاثين وكصاحبة ثروة طائلة . والمجتمع الرومانى الذى تختلف أفكاره فى المزاح اختلافاً بيّناً عن أفكارنا ، راح يقول مازحاً : « إنها سمّمَتْ زوجها ، وكانت عشيقة أخيها أيضاً » بيد أنه من الخطل أخذ مثل هذا المزاح مأخذاً جدياً . . حقا إن كاتولوس وشيشيرون يكرران هذه الأقوال ، ولكن كليهما شاهد لا يعتد به . . فالحقيقة المقطوع بها والتى لا مراء فيها ، ذلك أن كلوديا بعد وفاة زوجها ، قد وقع اختيارها على ماركوس كايليوس روفوس Marcus Caelius Rufus الذى كان تحت حماية شيشيرون ، وصديق كاتولوس الحميم ، وأحد المغامرين الجسورين

الذين ذاع صيتهم فى ذلك العصر المضطرب . قد وقع عليه اختيارها حبيباً مفضلا لا يجاريه فى قلبها أى حبيب .

أما كيف استطاع كاتولوس أن يتحمل صدمة التنحى عنه وطرحه فى عالم النسيان ، ولفظه لفظ النواة وجعله ذكرى لغرام مضى وانقضى ، فيمكننا أن نلمسه من تلك الأبيات المريرة التى تضمنتها القطعة السابعة والسبعون والمصدرة باسم روفوس .

ولكن بقدر ما كانت الضربة قاصمة لمركز كاتولوس الأدبى ولقيمته الشخصية ، فإن تعلقه بحبيبته السابقة كان تعلقاً شديداً بعد تلك الروابط الغرامية الماضية ، حتى أصبح من العسير عليه الخلاص منها ومن قيودها . ومن ثم فهو يكتب لها فى شبه تراكيب هى خليط تارةً من السب والحب ، وطوراً من الاعتراف والاستغفار ، وأحياناً أخرى من الثورة ضد عبودية المشاعر والأحاسيس ، فيقول :

«لا أستطيع احترامك
وإن كنت صادقة
ولا الكف عن حبكِ
مهما كنتِ فاعلة .»

وتجرى القصيدة الثانية والسبعون على نفس النمط

« أعرفك الآن أفضل من قبل
وهأنذا أقر وأعترف
بأن حبي لك ينمو ويزيد
بينما تقديري يقل وينكمش » .

وأخيراً نجد الشاعر يجمل ذلك العراك الصارم بين العاطفة والكرامة الشخصية فى بيتين من الشعر متأججين ، بعنوان « أمقت وأحب » .

« أكره وأحب
فلا تسألينى عن السبب
فهما حاولتُ لا أعرفه
وإن كنت أحس بأنه ألم مبرح » .

ومن الخطبة التى ألقاها شيشيرون دفاعاً عن كايليوس فى عام ٥٦ ق . م . يمكننا أن نكوّن فكرة عن لون الحياة التى تحياها كلوديا وجمهرة فرسانها من أمثال كايليوس وكاتولوس وكالفس ومن عداهم إبان عامى ٥٨ و ٥٧ ق . م . . . . لقد كان للسيدة بيت ريفى فوق تل البلاتين بالقرب من نهر التيبر حيث كانت ، مثلها في ذلك مثل ميديا Medea ، تمارس فن السحر وتزاوله ، وقد ساعدها على ذلك ثروتها الطائلة وجمالها الفتان . . وكان وفاضها وفراشها مباحين لكل حبيب طارق ، كما أن ليالى الشتاء كانت تمر سريعاً فى

حفلات وولائم متعاقبات ، وفى رقصات وما يشبه الرقصات من شتى ألوان اللهو والترفيه عن النفس . . . فإذا جاء الصيف استجم الفريق كله عند شاطىء البحر وفى حمامات بايای ظل السعى وراء الملذات والمسرات على أشده ، والانغماس فى الخلاعة والمجون مستمراً مع شىء من الإباحية التى يندر السماح بها فى روما .

والآن ، لندع شيشيرون نفسه يتكلم مدافعاً عن موكله أمام جمع السناتو فى تهمتى دس السم وابتزاز الأموال ، وهما التهمتان اللتان وجهتهما إليه كلوديا .

« سادتى ، إننا فى هذه الدعوى لا نتعرض لأحد غير كلوديا ، تلك السيدة الكريمة المحتد ، الطاهرة الصيت . بيد أننى لن أقول عنها شيئاً إلا بالقدر الذى يتحتم علىّ بيانه لكى أدحض الاتهام الموجه نحو موكلى . وإن لم تتهمه كلوديا بأنه قد أعد السم لها ، وإن لم تقل إنها أقرضت كايليوس أموالاً ، فكم تكون وقاحتنا إذا تكلمنا عن سيدة يختلف شرفها عما يستلزمه شرف السيدات الرومانيات . ولكننا إذا تجاهلناها جانباً ، ولم يجد خصومنا اتهاما يوجهونه ضد كايليوس ، ولم تبق هناك وسيلة لمهاجمته ، فما الذى يتحتم علىّ ، بصفتى محاميه إلا أن أصد كرة من يهاجموننا ؟ أما عن هذا الذى أقوله ، فقد أقوم به حقاً بمنتهى الصرامة ، لولا تلك البغضاء التي بينى وبين زوج

هذه السيدة . أعنى بينى وبين أخيها ، حيث إننى دائماً أبداً أقع فى هذا الخطأ .

وكما هو واقع الحال فإننى سأتصرف فى لين خشية أن أتجاوز الحدود التى يرسمها واجبى أو تقتضيها القضية التى وكل إلىّ الدفاع فيها : فكثيراً ما اعتقدت أنه من المفروض علىّ أن أتجنب العلاقات السيئة مع السيدات ، وخاصة مع كلوديا التى دأبت دائماً على أن تكون حميدة الطباع فى مسلكها مع الناس أجمعين ، متحاشية فى ذلك أى عداوة قد تنشب بينها وبين أى فرد من الناس .

ولكننى أولاً وقبل كل شىء سأستفسر منها لأعرف هل تفضل أن أتصرف معها بأسلوب صارم رسمى عتيق ، أو بطريقة لينة رقيقة مليئة بالمجاملة .. فإن كانت تفضل الأسلوب الصارم ، فلابد لى من أن أستدعى من دنيا الأرواح أحد أولئك السادة ، طويلى اللحى — ولن تكون لحيته قصيرة كلحية من هى متيمة به الآن ، ولكنها ستكون لحية كثة كتلك التى نراها فى التماثيل والصور القديمة ... فهذا الذى سأستدعيه ، سوف يزجر السيدة ، متحدثاً إليها بدلاً منى خشية أن تغضب هى منى الآن ... والآن لندع أحد أفراد عائلتها ينهض ، وليكن أپيوس Appius الضرير ، قبل غيره . فحيث إنه لا يستطيع رؤيتها ، فسيكون من ثم أقل الناس حزناً . . فلئن ظهر حقيقة ، لكان تصرفه كالآتى ، ولوجه إليها

الخطاب قائلا : « أيتها المرأة ! ما شأنك مع كايليوس ؟ ما أمرك مع هذا الصبي ؟ ماذا دهاك مع غريب ؟ وكيف كان رضاك ؟ لم كنت تظهرين له مثل هذا الود ، حتى أقرضته بعض مالك فأصبحت هكذا عدوته ، حتى أضحيت تخشين أن يدس لك السم ؟ ألم تشاهدى أباك وهو فى منصب القنصل ؟ أما سمعت أن خالك وجدك وجد جدك ، وكبير أجدادك كانوا قناصلة كذلك ؟ أتجهلين أن كوينتوس ميتيلوس كان زوجك ؟ وأنه كان من أبرز الرجال وأشجعهم ؟ بل كان وطنياً غيوراً قضى بمجرد ظهوره فى الحياة العامة على جميع مواطنيه ، وسلبهم المجد والكفاءة والكرامة ؟ ثم لم بعد أن تزوجت من تلك العائلة العريقة الأرومة ، الكريمة المحتد ، الشريفة النجار ، الطائرة الصيت ، وأنت يا من تنحدرين من بيت كريم شريف ، لم سمحت لكايليوس أن يظهر لك كل هذا الود والحب ؟ هل كان بينك وبينه قرابة ؟ أكان هو نسيبك ؟ أكان صديقاً حميماً لزوجك ؟ الحق إنه لم يكن أحد هؤلاء أجمعين — فماذا ياترى يكون السبب إن لم يكن محض الطيش والشهوة ؟ فإذا لم تحركك صور رجال عائلتنا ، أفما كان أجدى بابنتى كوينتا كلوديا Quinta Clodia أن تثير فى صدرك أن تنافسيها فيما تتحلى به من الفضائل العائلية والعفة التى هى أساس مجد المرأة ؟ أفما كان يجب على كلوديا ، تلك العذراء القيستالية التى كانت متى احتضنت أباها وهو فى عربة النصر ، لم يجرؤ تريبونا

من ترابنة الشعب المعادين له ، أن يحاول عزله من عربة النصر هذه ؟ لم إذن تحاكين رذائل أخ ، مؤثرة إياها على فضائل أب أو جد عائلة كاملة أنتمى أنا إليها كما ينتمى غيرى من الذكور والإناث ؟ هل رأيتنى قد حرمت وطنى من الدخول فى عالم السلام والوئام مع پيرّوس Pyrrhus ، حتى أسرفت بدورك ، فى كل يوم تقريباً ، فى علاقاتك مع عشاق مغمورين ؟ هل زودتُ أنا المدينة بالماء كى تستخدميها أنت فى أغراض نجسة ، هل مهدتُ أنا طريقاً رئيسياً لكى تترددى أنت عليه بصحبة فرسانك المتيمين » .

« ولكن ما هذا الذى أفعله أيها السادة ؟ . . فإننى عندما أقدم شخصية لها مثل هذا الاحترام ، أخشى أن ينشق أپيوس نفسه فجأة على كايليوس ويتهمه بصرامة العذول . ولكنى أيها السادة سأتكلم بالقدر الذى أستطيعه ، وبأسلوب يشعرنى بأننى أخدع نفسى وبأننى أؤيد سلوك كايليوس بما قد يرضى حتى أقسى القضاة وأعنفهم . أما أنت يا كلوديا ، فلتعلمى أننى الآن أوجه الكلام إليك بشخصى دون التواء أو اعوجاج ، لأنك إن كنت تقترحين كسب رضائنا عن أعمالك وأقوالك ، واتهاماتك وهجماتك ، ونشاطك السرى ، فيجب عليك أن تفسرى لنا أسباب تلك الشهرة العظيمة مع موكلىّ ، وتلك الصداقة العظيمة وهذا الود الصارخ . . فإن متهمينا يتحدثون بصوت عال عن دعارات وحماقات ، وعن ولائم وغراميات ، وعن

زنى وأغنيات ، وعن موسيقى ورحلات ، وعن مراكب للمتعة واللهو غير الشريف، نراهم فى الوقت نفسه يشيعون أنهم لا يتكلمون بشىء إلا حسب إرشاداتك . وعلى كل فحيث إن مزاحك الممزوج بالعنف والعناد وصلابة الرأى هو الذى جاء بك إلى ساحة الفورم وأوقفك أمام هذه المحكمة ، فعليك إذن إما أن تنفى هذه التهم وتثبتى زيفها ، أو ألا تسمحى لدليل واحد أن يقوم بحال من الأحوال عوناً على اتهامك أو الشهادة عليك . . بيد أننى لو شئت التصرف معك فى شىء من المجاملة ، فلن أفعل غير الآتى :

سأعمل على الخلاص من ذلك العجوز الظلف ، الأقرب إلى البربرة منه إلى أى شىء آخر ، وأختار أحد أفراد عائلتك وليكن أخاك الأصغر قبل غيره ، فهو فى أسلوبه مرآة صادقة للأدب ، كما أنه يهيم بحبك غاية الهيام . وكما يخيل إلىّ كانت تنتابه بالليل بعض المخاوف والهواجس ، فاعتاد أن ينام إلى جوارك كأى صبى صغير يرقد مع أخته الكبيرة . فماذا إذن لو راح يخاطبك هكذا . . .

« لِمَ يا أختاه تحدثين كل هذه الجلبة والضوضاء ؟ لماذا أنتِ فى هذه العاصفة من الهياج ؟ ولمَ تعظمين مثل هذا الموضوع التافه وتجعلين من الحبة قبة ؟ لماذا تعطين له هذه الأهمية بصيحاتك وصرخاتك ؟ لقد ركزتِ عيونك على جار شاب ، وفتنتك خلقته وطلعته، فضلا عن عيونه التى سحرت لبّك . . لقد همتِ برؤياه

كثيراً : ولقد شوهدتِ أحياناً فى نفس الدار ، وأنت كما تعلمين المرأة ذات الصيت العريض ، وصاحبة الثراء الطائل . . . ومع ذلك فلم تستطيعى بحال من الأحوال أن تحظى بحبه الكامل مع أنه كان ما يزال تحت رعاية أب شديد الرقابة ، إنه يمتهن هداياكِ ويحتقرها مستخفاً بها . . . فلترحلى إذن إلى أى مكان آخر . . . وهل نسيتِ الدار التى تملكينها هناك بالقرب من نهر التيبر ، وكيف كنتِ فى حين من الزمان فى ألم مبرح كى تؤهلى نفسك لذلك المسكن الذى لا يبعد عن البقعة التى يستجم فيها جميع شبابنا . . . كانت أمامك يومذاك فرصة ذهبية كى تمتعى نفسك كل يوم تقريباً . . . فلم تكلفين نفسك مشقة كل هذا الانزعاج من أجل شخص لا يكن لك إلا كل احتقار وامتهان ؟ »

والجدير بالملاحظة أن شيشيرون لا يتملق ولا يداهن : فهو فى دفاعه عن كايليوس ضد تهمة الفسق يتكلم بنفس الصراحة فيقول :

« إننى لا أتكلم الآن ضد كلوديا ، بيد أنه لو فرضنا وجود شخصية أخرى تختلف عنها شكلا ، واحدة من اللواتى يرتكبن الفحشاء مع جميع الرجال ، ومن اللواتى لا يستسغن الحياة بدون شخص يهبهن العطف ويطارحهن الهوى جهراً وفى وضح النهار ، ومن اللواتى يفتحن أبواب بيوتهن وحدائقهن وحماماتهن على مصاريعها لممارسة شتى ألوان الدعارة والفجور . بلى ، واحدة من اللواتى يحتفظن بشاب يافع وينفقن من أموالهن لسد الثغرات التى

يحدثها الآباء الممسكون المتزمتون الذين لا يعطون أبناءهم إلا النذر اليسير من المال . . . لو أن مثل هذه السيدة تعيش عيشة الدعارة هذه وهى أرمله ، وأظهرت فسق طباعها ودعارة ميولها بمسلكها الشهوانى واستخدمت أموالها فى أغراض التبذير والإسراف المقيت. ولئن أدى فجورها إلى احتراف الدعارة وانتسابها إلى طبقة المومسات الساقطات ، فهل يمكن اعتبار ذلك الرجل داعراً أو فاسقاً من يتمتع بكامل الحرية فى مغازلتها ومطارحتها الغرام ؟ ولكن ألا تنفث جيرة كلوديا أزكى الروائح ؟ وهل صوت الشعب صامت لا يتكلم ؟ أفلا تنطق مياه بابای ؟ إنها لا تتكلم فحسب ، ولكنها تصيح وتصرخ بأعلى صوتها ، بما قد بلغه فجور هذه المرأه الواحدة التى لا تنشد فى فجورها عزلة أو ظلمة أو ما شابه ذلك من موبقات الإثم فحسب ، بل وتلتذ كذلك بمزوالة ألوان الدعارة أمام جموع الناس . . . فلو اعتقد أحد أن الجماع الحر ولو كان مع المومسات يجب أن يحرّم على الشباب ، لاتّصف حقاً بالصرامة والفظاظة ، بيد أننى لا أستطيع أن أناقضه ، فهو فى اعتقاده ، وهذا ما يتحتم علىّ قوله ، لا يختلف عن حرية عصرنا الحالى فحسب ، بل وعما تعوّد آباؤنا ممارسته والسماح به . . فهل جاء أبداً زمان قضى فيه بتحريم هذه العادة ؟ فمتى وفى أى زمان جاء اعتبارها تهمة أو خطيئة ؟ وفى أى عصر حُرِّم السماح بها دون السكوت عنها ؟ وباختصار ،

هل ورد أبداً زمان حُرم فيه ما لم يكن محرماً من قبل ؟ وإنى الآن بصدد توجيه سؤال دون ذكر اسم أى سيدة ، ولكنى سأترك لكل شخص أن يدلى بالحكم الذى يراه : لو أن امرأة غير متزوجة تفتح أبواب بيتها على مصاريعها لكل زان وفاسق ، ولمن يطلبون الشهوة والمتعة ، ثم تعلن أمام الملأ أنها مومس ، ومن ثم تقبل الدعوات من كل غريب . وهب أنها فعلت ذلك فى روما فى بيتها الريفى ، أو فى باياى ، ذلك المكان الموبوء . . . أى لو أنها لم تظهر أمام الناس فى مشيتها الماجنة فحسب ، بل وفى ردائها وركبها من الشباب ، غير مكتفية بغمزات عيونها وحرية أحاديثها ، بل تعدت ذلك إلى القبلات والأحضان ، فضلا عن كل مسلك شائن فى الحمامات وقوارب اللذة والمتعة ، وفى الولائم والدعوات ، لا لتبدو مومساً فحسب ، بل ولتظهر بمظهر المرأة الوقحة المستهترة السليطة ، فلو حدث وشوهد شاب يافع فى صحبة مثل هذه المرأة ، أفتكون نظرتكم إليه كنظرتكم إلى أى فاسق داعر ؟ »

« إن أسوأ الإفساد لإفساد خير الناس » . ولا شك أن النساء من أمثال كلوديا فى أيامها الأخيرة ، كن فى حاجة ماسة جداً إلى الفضائل الذاتية التى للجنس اللطيف . . غير أن كلوديا كانت تتمتع بمفاتنها الخاصة . ولم يكن قبل ربيع عام ٥٧ ق.م . حينما جمع كاتولوس شتات شجاعته للخلاص من تلك العلاقة التى نالت من رجولته

وألحقت بها المذلة والمهانة . ولقد مات أخوه العزيز حينذاك فى طرود ، ومن ثم وطن العزم على مغادرة إيطاليا والالتحاق بإحدى الوظائف فى جيش ميميوس Memmius ، حاكم بيثونيا Bithynia. ولقد سجل هذا العزم فى قصيدتين من أروع أشعاره ، وهما القصيدة الثامنة ، والسادسة والسبعون ، وفيهما تتجلى آخر مرحلة من مراحل الهجران ، بينما فى القصيدة السابعة والثمانين يضع كاتولوس خاتمة كل شىء فيقول :

« لن تستطيع امرأة أن تقول
إنها قد حظيت بالحب
كما أحببتك يا عزيزتى من كل قلبى.
وليس هناك من رجل
ثبت إخلاصه لحبيبته
كما عُرفتُ أنا بإخلاصى ».

وهكذا فى عام ٥٧ ق.م. قطع كاتولوس علاقته الغرامية بكلوديا غير أننا لا نجد بين ما كتب من أشعار عقب هذا التاريخ إلا ثلاث قصائد عنها . وعند عودته إلى روما متأخراً فى عام ٥٦.ق.م وجد أن كايليوس أيضاً قد تخلص من الغادة الساحرة ، وأنها اتهمته أمام القضاء واتخذت لنفسها لقب « كوادرانتاريا Quadrantaria » ، أى « المومس الرخيصة لقاء مليمات » . وفى القصيدة الثامنة والخمسين

وجّه كاتولوس الكلام إلى كايليوس وصب جام اللعنة والسباب على معشوقته السابقة ، : « فبيتها بؤرة للدعارة تنتظر فيه الوافدين ، أما هى فمن اللواتى يحبسْنَ الطرقات بالليل وينغمسْنَ مساوماتٍ فى أحط الموبقات » ..

ولكن رغم هذه الألفاظ القاسية ، يمكننا أن نشك فى أن حب كلوديا كان لايزال يسرى فى دم الشاعر دون استطاعته نسيانها . . ويحتمل أنها بعد رجوعه ، فى الفترة مابين عامى ٥٥ ، ٥٤ ق . م . قد حاولت جاهدة إعادته ثانية إلى زمرة أتباعها وعشاقها . وكان وسطائها اثنين من أقل أصدقائه شهرة ، هما فوريوس وأوريليوس. ويحتمل أن رد كاتولوس لم يسجله إلا قبل موته المبكر بفترة وجيزة . . وذلك فى القصيده الحادية عشرة بنهايتها الرائعة :

« ذلك الحب الذى أجرمت هى فى حقه
فهـــوت به إلى الحضيـــض
كما تهوى الزهرة عند حافة الحقـــل
وقـد بترها بســلاحه
المحراث المار بطريقها » .

وقديكون ذلك بمحض الصدفة أو بمحض الاختيار ، كما حدث فى أول قصائد كاتولوس عن ليسبيا ، أن حاكى فيها الشاعر أحد أوزان قصائد سافو ، لكن هذا التشابه فى الوزن الشعرى يؤكد

ذلك الفارق المرير بين مشاعر صاحبيَ القصيدتين... وإلى هنا ينتهي تسجلينا لأشعار كاتولوس الغرامية .

مات كاتولوس فى عام ٥٤ ق . م . كما قتل كايليوس بعد وفاته بست سنوات ، بينما مات شيشيرون بعده بخمس سنين . أما كلوديا فقد امتد بها الأجل ، إذ نجد أن شيشيرون فى إحدى خطبه الأخيرة يسأل أتيكوس عن أخبار كلوديا . . . والمعروف أن شيشيرون كان أحد المعجبين بل والراغبين فى الزواج من كلوديا قبل أن يعرفها كاتولوس أو يقع فى حبائل غرامها .

الباب الثالث

أشعار كاتولوس

إن أشعار كاتولوس كما هى الآن بين أيدينا ، توضح ظاهرة من أبرز الظواهر ... ألا وهى التوافق بين محتوياتها .

تختلف أشعار ڤرجيل وهوراتيوس أيضاً من حيث الروعة والتفوق ولكننا فى حالة هذين الشاعرين نستطيع أن نتتبع تقدما طبيعياً من حيث النمو .. وذلك ابتداء من أناشيد الرعاة Eclogues الفجة ، إلى كمال الأينيذة الناضج ، ومن مرارة أشعار الحماس Epodes اليافعة والهجائيات المبكرة Satires إلى الحكمة الناضجة التى نجدها فى الأناشيد Odes والرسائل Epistles .

اما الأمر مع شاعرنا فبخلاف ذلك على خط مستقيم ، ومهما كان سبب التفاوت فليس للزمن دخل فيه ، لأن كاتولوس مات فى سن الثلاثين بعد أن أنجز كتابة جميع أشعاره فى السنوات الست أو السبع الأخيرة من سنى حياته . أما كون التفاوت حقيقة ظاهرة للعيان فسوف يتضح بلا عناء لكل من يتحاشى المختارات مؤثراً قراءة جميع أشعار الشاعر التى بين أيدينا .. فبعض الأشعار جميل

رقيق ، وبعضها الآخر سمج فى سماجة كل ما هو مكتوب باللغة اللاتينية : هذا إلى أن بعضها يبرز كمال الواقعية الخفيفة الحية ، بينما يتجرد بعضها الآخر من كل معانى الحياة لتكون مثلا فى السماجة وإثارة الملل .. على أن بعضها قصير مقتضب ينحصر فى بيتين من أشعار الرثاء بينما يطول بعضها الآخر إلى أربعمائة وثمانية أبيات من الشعر فتبدو أطول مما هى عليه .. وبجمل القول ، إن أشعار كاتولوس تتضمن « مزيجاً » من شتى الضروب والأصناف ، التى من بينها ، النوع المحزن .

وما بين أيدينا من نصوص كاتولوس الآن يحتوى على ١١٦ منظومة شعرية قام بترتيبها أديب لم يكن شديد الاهتمام بموضوعها أو بترتيبها الزمنى ، قدر اهتمامه بمظهرها الخارجى . وهى تبتدىء بستين منظومة وجدانية ، تتبعها مجموعة من ثمانى قصائد تفوق الأولى طولاً ، من بينها منظومة « پيليوس وثيتيس Peleus & Thetis » وكلها فى أوزان شعرية مختلفة ، ثم مجموعة من ثمانى وأربعين قصيدة أغلبها غاية فى القصر يقع فى بيتين اثنين من الشعر الرثائى تقريباً ..

أما أولئك الذين تعودوا أن يلمسوا أعمال أى شاعر بعد جمعها مرتبة حسب تاريخ تأليفها أو وفق موضوعها ، فرأيُنا فيهم أنهم يتبعون طريقة لا عقل فيها ولا تعقل . إلا أن اهتمام القدامى بالأوزان الشعرية كان يفوق كثيراً مدى اهتمامنا بها . وكان لكل وزن شعرى

طابعه الخاص وارتباطاته الخاصة التى تجعله صالحاً بإجماع الآراء للون خاص من التأليف ، وتحكم عليه بعدم الصلاحية لأى لون آخر من ألوان التأليف . بيد أنه كثيراً ما كان يحدث أن يحتكر أحد شعراء الماضى وزناً شعرياً خاصاً ويعتبره ملكاً خاصاً له . وكان على الكتاب المتأخرين إعترافاً بامتنانهم له ، أن يتخذوه نموذجاً لهم ويحاكون ما يدعيه من وزن شعرى ...

وهاتان الحقيقتان لا بد من إدخالهما فى الحساب عند الكلام عن أشعار كاتولوس بالذات ...

ولئن أردت الحق فعندما بدأ كاتولوس يكتب أشعاره الغرامية لم يكن أمامه نماذج رومانية ... ولما كان يعرف اليونانية ، فقد توجّه إلى مركز الثقافة فى البحر الأبيض المتوسط ... لأن أثينا فى عصره ، إن كانت مازالت منارة علم ، إلا أنها كانت قد فقدت صيتها وأهميتها ومكانتها الأولى ، بينما احتفظت الإسكندرية بمركزها كعاصمة للبحر الأبيض المتوسط ، كما يقول طالب العلم فى حديث عيسى بن هشام عندما سأله عن مطلع شمس العلم :

إسكندرية دارى لو قر فيها قرارى
لكن بالشام ليلى وبالعراق نهارى

فكانت الإسكندرية مشعل الثقافة والاستنارة فى ذلك العصر الذى كانت فيه مصر تتمتع بالاستقلال . أما البطالمة فكانوا ملوكاً عظماء وكان المصريون يكوّنون مع الإغريق أمة واحدة عظيمة .

ومن ثم فقد توجه كاتولوس إلى أدباء الإسكندرية ، غير أنه

لم يكن محاكياً ذليلاً لأدبائنا العظماء، نظراً لما كان بينه وبين أسلافنا من اختلاف بيّن.

فكاتولوس أولا وقبل كل شيء كان غالياً عاطفياً من الوافدين من الشمال، ولم يكن يعرف تلك القسوة الباردة التي اشتهر بها الرومان القدماء، ولا تلك الكراهية نحو الأدب العاطفي...

ولقد عاش أدباء الإسكندرية وفنانوها تحت حماية القصر الملكي وكانوا يكتبون أولاً وقبل كل شيء إرضاء للقصر الملكي وإشباعاً لأهوائه أنفسهم لما كان بالمتحف مكتبة وجامعة، فقد نشأ هؤلاء الرجال أدباء وعلماء ومعلمين لا يكرسون جل وقتهم لغير نقد الكتب القديمة والتعليق عليها.

رفض كاتولوس وأبى أن يحاكي هؤلاء السكندريين في عاداتهم وطرقهم العلمية، وذلك لأنه لم يكن بحال من الأحوال ناقداً مثلهم فقد كانت أولى أشعاره قصيدة كتبها عن ليسبيا تعتبر ترجمة لإحدى أشعار سافو. وكان لكاتولوس هدفان من ترجمتها:

أولا: لأنها كانت خير قصيدة وأصلحها للتعبير عن مشاعره.

ثانياً: لأن القصيدة لو وقعت في يد زوجها، أو تعرضت للنقد اللاذع، لكان في مقدوره عندئذ أن يدعي بأنها محض ترجمة لقصيدة سافو منكراً علاقته بليسبيا.

ومما لا شك فيه أن كاتولوس في بعض أشعاره قد حاكى

كاليماخوس Callimachus فى مراثيه . . . ومع أن كاليماخوس كان من سادة كتاب هذا اللون ، فقد منى كاتولوس بالفشل فى كتابته ، لأنه نسى الفارق بين اللغتين اللاتينية واليونانية ، وتناسى طبيعة الشخصية التى تختلف عن طبيعة كاليماخوس .

أما خير مرثاة كتبها كاتولوس فتلك التى نظمها عندما توفى أخوه (القصيدة ١٠١) .

ومما لاجدال فيه أن كاتولوس عندما ترجم منظومة سافو ، كان يعبر عن مشاعره الشخصية وعن عواطفه ناقلا إياها عن اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية .

كان كاتولوس يقلد الوزن اليونانى على النمط الذى كان يتبعه كاليماخوس فى كتابة مراثيه ، مصدّراً القصيدة بصفات وألفاظ كثيرة غير مفهومة ، مقتبساً هذه الصفات من الأساطير . . . فلقد حاول كاتولوس كتابة أشعار مفعمة بالثقافة ، ولكننا فى الواقع نحب كاتولوس لما يكتبه تلقائياً ، لالما فى أشعاره من علم وثقافة .

كان كاتولوس يترجم ترجمة حرفية . ولقد ثبت هذا بعد اكتشاف ما نقله نقلا حرفياً عن بعض كسر كاليماخوس . فقد كانت أشعار الأخير مفقودة ، فلما عُثر على بعض كسر منها ، وجدنا أن كاليماخوس قد استعمل فيها جميع كلمات كاتولوس ، مشيراً إلى جميع الأساطير الواردة فى منظومة كاتولوس ، ومقترفاً نفس الأخطاء التى ارتكبها كاتولوس .

وإذ انحدر كاتولوس من عائلة ثرية ، فقد اختلط مع عظماء الشخصيات . . . ومقت بومبي لانضمامه إلى قيصر ، كما مقت قيصر كزعيم للعامة ... أما هجوم كاتولوس على قيصر فقد كان غاية فى القسوة ، ويعلق كوينتيليانوس Quintilianus على ما ورد بالمنظومة الثالثة والتسعين عن قيصر بأنه محض جنون، إذ كيف يجرؤ كاتولوس فيتكلم بهذه الطريقة وتلك اللهجة عن رجل له عظمة قيصر ومكانته فى التاريخ ... ولم يكن هجاء كاتولوس لبومبي بأقل من هجائه لقيصر رغم حرصه على عدم ذكر اسم بومبي بقوله : « أيها الحم ، لقد دمرت كل شيء » .

كان كاتولوس زعيم المدرسة السكندرية وكان صديقه كالفوس Calvus زعيم المدرسة الأتيكية فوقف كاتولوس إلى جانب صديقه ضد شيشيرون ، والحقيقة أنه ليس لدينا برهان واحد يؤيد ذلك ، ولكن هناك إشارة به فيما كتبه شيشيرون إلى الشعراء الجدد بعد وفاة كاتولوس بعشر سنوات .

أما القصيدة التاسعة والأربعون التى وجه فيها كاتولوس كلامه إلى شيشيرون قائلا إنه خير الخطباء ، وأفصح أحفاد رومولوس... ناعتاً نفسه بأنه أسوأ جميع الشعراء ، فتدفعنا إلى التساؤل عما فعله شيشيرون حتى يستحق كل هذا الإطراء والتقريظ ، وما تضمنته المنظومة من عبارات الشكر على لسان كاتولوس .. غير أن هناك

احتمالا فى أن هذه القصيدة كتبت بهذا الأسلوب من باب السخرية ، إذ لم يكن هدف كاتولوس مدح شيشيرون بل ذمه ونقده ، وذلك لأن كاتولوس كان يعتبر صديقه كالفوس أفصح خطباء روما قاطبة ولا أحد سواه ... وهكذا نعثر على دليل قاطع بأن كاتولوس لعب دوره فى تلك المعركة الأدبية التى قامت بين شيشيرون من جهة وبين كالفوس وآخرين من جهة أخرى ، لقد كان كل إعجاب شيشيرون منحصراً فى الشاعر القديم إينيوس Ennius ، ولم يكن لديه وقت لشعراء الإسكندرية أبداً .

أما أشعار كاتولوس فقد صدرها الشاعر بقصيدة للمؤرخ المشهور كورنيليوس نيبوس ، ويبدو أن كورنيليوس كان معجباً بأشعار كاتولوس نظراً لأنه شمالى مثله .

كان كاتولوس رائد شعراء الوزن الحادى عشر ، لأن معظم أشعاره الوجدانية تتركب أبياتها من أحد عشر مقطعاً ... أما الوزن السداسى فقد اكتفى باستعماله فى مطولاته ، بينما استعمل فى مراثيه الوزنين السداسى والخماسى معاً ... ولكن ما من شاعر آخر قد كتب شعراً من الوزن الحادى عشر فى جمال ما كتبه كاتولوس بهذا الوزن.

كان كاتولوس شاعراً فطرياً إنبعاثياً تلقائياً ، ولهذا كانت أشعاره رقيقة ، حرة طليقة ، والعجيب فى أمر كاتولوس أنه فى الأشعار التى يبدو فيها مقصراً أو مهملا ، نراه يبذ مارتيالوس

Martialus وبيترونيوس Petronius ، وهما الرومانيان الوحيدان اللذان كتبا بالوزن الحادى عشر ...

أما النقص الذى نلمسه فى مراثى كاتولوس ، فمرجعه محاكاة النماذج الإغريقية .

إن أول ميزة لأسلوب كاتولوس هو أنه « طبيعى » خال من التكلف الممقوت ، ولا يستخدم فيه أى ألفاظ متكلفة. ومن ثم كانت أشعاره الوجدانية جديرة بمقارنتها بأى أشعار وجدانية كتبها أى شاعر إغريقى أو رومانى .

ولو شاء فرجيل أن يكون انبعاثياً ذاتياً لما أمكنه أن يصل إلى الدرجة التى وصل إليها شاعرنا كاتولوس .

كان كاتولوس مغرماً بالمصطلحات اليومية ، ولم يكن يتحاشى أى كلمات عامة . بل وصل به العشق وبلغ به الهيام إلى استخدام عبارات قد تستخدم فى الكلام المرسل البسيط والنثر العادى . وكثيراً ما كان يكرر نفس الألفاظ . وبجمل القول وقصاراه ، كان كاتولوس يكتب كل ما يحلو له ويروق فى ذوقه ، ويسجل جميع ما يمر بخاطره .

ولقد أباح كاتولوس لنفسه الحرية المطلقة فى كل ما يكتب ولذلك كان عبقرياً دون أن يعرف ذلك .

ولذلك فهو يختلف عن جميع الشعراء الرومان ، لأنه كان فناناً

عبقرياً دون إدراك لما عنده من مهارة وحنكة شعرية .

لم يكن من السهل على شاعر مثل كاتولوس أن يحاكى الشعراء السكندريين تماماً ، لأنه يختلف عنهم تمام الاختلاف فى كل شىء . وإن كانوا قد علموه شيئاً فذلك هو النقد والحرص فى كل ما يتعلق بالتركيب والشكل ...

ومما كان يميز كاتولوس عنهم . أنه شاعر وجدانى عاطفى حار ، بينما هم نقاد مجردون من هذه الأحاسيس . . . كان هو أرستقراطياً رومانياً أما هم فكانوا مستشرقين ، عاشوا فى حماية وكنف القصر الملكى ، بينما كان هو يهيم حباً بمعارضة ساسة عصره مهما علا شأنهم وعظم قدرهم وذاع صيتهم .

الباب الرابع

قصائد كاتولوس

فى حب ليسبيا

٥١

إنه لقرين الإله
كما يبدو لناظرى
إنه أسمى من الآلهة
لو كان ذلك ممكنا
مَن إذا جلس تجاهكِ
رفع بصره إليكِ
وظل يُحدق فيكِ
مرةً بعد مرة
فيسمعك تضحكين
فى عذوبة مطربة
إن هذا ، يا ليسبيا
يسلبنى جميع مشاعرى
فيالتعاستى وشقائى !
فكلما أرى طيفكِ
ينعدم صوتى على الفور
ويختلج لسانى فى فمى
ويدب فى سائر أوصالى
سعير لظىً رقيق
وتجلجل آذانى
بطنين داخلىّ
وتُحجَبُ عيناىَ
فى أكفان من الدَّجىّ.

٢

أى عصفور فتاتى
يا جل سلوتها
وكمن تداعبك
قابعاً فى حجرها
وتعطيك أنملتها
عسى أن تُنَقِّرَها
وتحثك دائماً
لتجدَّ فى التنقير
كلما ألحتْ على فتاتى
فتاة حى المشرقة
رغبةٌ فى أن تلهو
آملةً أن تجدَ
كما يُخَيلُ إلىّ
بلسماً لجراحها
يوم تخبو فى قلبها
لواعج الحب المتأججة
آهِ لو أستطيع مداعبتك
كما تداعبك هى
فأزيح عن قلبى
أثقاله المُبرِّحة

٣

يا أهل العشق والهوى
وكل من تختصهم بعطفها ڤينوس
نوحوا... ثم نوحوا... ثم نوحوا
فعصفور حبيبتى قد طواه الردى

* * *

كان هذا العصفور دعابة غادتى
وكانت تحبه كعينيها
لأنه كالشهد حلاوةً
ويعرف سيدته
كما تعرف أى بنت أمها

* * *

وعصفور فتاتى يهيم بحجرها
يقفز فيه من هنا ومن هنا
ويخصها بالغناء وحدها

* * *

والآن يا عصفور غادتى
أنت تجتاز طريقاً
فى دياجير الظلام
لا يعود منه فرد
كما أجمعَ الأقوام

* * *

أى رب العالم السفلى! أى رب الظلمات!
لعنتى عليكما ، لعنة ما لها مثال
فقد سلبتما عصفورها
وكان آية فى الجمال

* * *

أى عمل من الشيطان هذا
آه يا عصفور الحبيبة
يا عصفورها الصغير
واحسرتاه عليك يا عصفور

* * *

محبوبتى تقرّحت عيونها
من عدم النوم وطول العويل
فأضناها الفراق ولوعته
وشوقها إليك وإلى تغريدك الجميل

* * *

غنّ لفتاتى أيها العصفور غنّ
فموتك المبكر وفراقك حالاً
قد أدميا عينيها حرقةً وبكاءً
فحرام عليك ورحمة بفتاتى.

٥

أى ليسبيا ، أى حبيبتى وحياتى
تعالى نعش فى دنيا الغرام
لا نبالى بحديث العجائز
فهُمْ من التزمت بمكان
وكلامهم سخافات وهراء

* * *

تغرب الشموس مساء
لتشرق من جديد فى الصباح
أما أنا وأنتِ فليس لنا
متى غاب عن ناظرَيْنا
شعاع الحياة القصير
إلا أن ننام طويلا
فى ليل ليس له صباح

* * *

هيا أعطنى ألف قبلة ثم مائة
ثم ألفاً أخرى ، من بعدها مائة
وبعد الألف الثالثة ، هات مائة وهكذا
حتى إذا طبعنا على الشفاة
آلافاً من القبلات
كففنا عن العد
لاختلاط الأرقام

فلا ندرى كم ارتشفنا من رضاب

* ° *

ويحكِ يا حبيبتى ، ثم ويحك
وحذار أن تنسى الحسود
فعينه الشريرة لو أحصت قبلاتنا
لهالها ذلك الفيض العظيم
فتبّاً لها ، ثم تبًّا لكل حسود

٧

تسألينى يا ليسبيا
كم قبلة من قبلاتك
تشفى غليلى وتكفى
أو تزيد لتطفى الأوار
فأقول عدّى رمال ليبيا
وذرات تربتها الخصيبة
ما بين معبد جوبيتر اللافح
والقبر المقدس لباتوس العجوز
أو بقدر نجوم السماء
وسط القبة الداجية
التى إذا عسعس الليل اطّلعت
على اختلاس العشاق لشهد الهوى
فإن تقبيلك يا ليسبيا
قدراً كهذا من القبل
فيه ما يكفى كاتولوس
حبيبك المتيم المجنون
وما يزيد على الكفاية
فما أحلى هذه القبلات
التى لن يستطيع العذول عدها
بعيونه اليقظة الفضولية
ولا مجال لأخى الشر
أن يحسدها بلسانه الثرثار

٨٢

عزيزى كونتيوس
إن شئت من كاتولوس
أن يفديك بمقلتيه
أو بما هو أعز منهما
لو صح وجود الأعز
فاتركه ولا تسلبنّه
ما هو أثمن عنده
وأغلى من عزيز عينيه
أو يزيد ويعظم .

٨٦

يرى الكثيرون كوينتيا جميلة فتانة

لكنها فى عينى
أزكى من الريحانة
مليحة القسمات
بمقلة وسنانة
ممشوقة القوام
طويلة فرعانة
ولا أنكر أبداً
بلوغها فى كل حالة
حد الكمال طبعاً
دون شك ولا إطالة
ولكنها ليست جُمْلَةً
جميلة فى ناظرى
فالجمال عندى لا يعرفها
كما هى لا تعرفه
ولا أخال جسمها
تبدو به ذرة واحدة
تغرينى فأستسيغها

أما فتاتى ليسيا
فكلها حسن وكلها إغراء
إذ قد سرقت من السيدات طُرًّا
كل فتنة وكل بهاء
فاختصت بالجمال وحدها
دون سائر النساء .

٩٢

تسىء ليسبيا القول فىّ
دائماً . . . . دائماً
وسيرتى على لسانها
دائماً . . . . دائماً
فليتنى أموت ، وليتنى أندثر
لو كانت ليسبيا حقيقةً
لا تحبنى . . . . لا تحبنى
وأى دليل عندى ؟
وعلاقتها معى
هى ، هى . . . . كما هى

* * *

إننى أصب عليها اللعنة
دائماً . . . . دائماً
ولكن هل لى أن أموت
لو أننى لا أحبها
لو أننى لا أحبها

٣٦

أىْ سِفْر فولوسيوس التاريخى
أىْ تلك الصحيفة الدنسة
هيا ونفذ النذر
من أجل حبيبتى
فإنها قد قدّمتْ
لڤينوس المقدسة
وكيوبيد المبارك
نذرها ونَصه :
لو أننى عدت
ثانية إلى حبها
وكففت عن قذفها
بأشعار الهجاء
ذات الوزن المفعولى
فسوف تعطى الإلـــه
ذا القدم العرجاء
خير ماكتب وأنتج
أسوأ الشعراء
كى يُدمَّر حرقاً
بحطب شجيرة لعينة

* * *

ولقد رأت فتاتى
أنك أسوأ الأشعار

التى نذرتها للآلهة
فى نوبة من الفرح
ولحظة من المرح
والآن بربك ،
أيتها المولودة
من البحر الأزرق
يا قاطنة إيد اليوم المقدسة
وأوريبى الفسيحة الأرجاء
يا مقيمة فى أنكونا
وكنيدوس ذات الأحراش
وفى أماثيوس وجولجى
وفى منطقة ديراخيوم
ملتقى البحر الإدرياتى

* * *

هيّا سجّلى فى سجلك
أن النذر قد وُفِّىَ
وُقدم كما اشتُرِط
ولم يكن سقيما
ولا عديم الرواء

* * *

تعال فى الوقت نفسه
تعال إلى النيران
يا سِفْر ڤولوسيوس التاريخى
يا أيتها الصحيفة الدنسة
يا حشاشة السذاجة
يا لمامة السماجة

٨٣

تحدّثني ليسبيا
في حضرة زوجها
بما لا يُستباح قولا
ولا يُستساغ سمعا
ماجنةً سادرة
خليعة مستهترة

* * *

ولأقوالها هذه
في نفس بعلها
أبلغ السرور وأعظمه
فياله من غفل أحمق

* * *

فيا أيها البغل الغبي
لست تفهم شيئاً
يا عديم الإحساس
ويا قصير النظر

* * *

لئن نسيتني ليسبيا
وقنعت بالصمت الطويل
برأ قلبها
وصح جسمها

* * *

ولكنها فى الحقيقة
تنصب لى شباكها
وتكثر من حديثها
فتنجلى أسرارها

* * *

وهذا يعنى أننى
أحتل كل عقلها
وأنها لاتذكر غيرى
ولا أحداً سواى قط

* * *

وليس كل ذا فقط
بل يرمى لشىء خفى
أشد من هذا وأنكى
والخفى فى كل أمر أعظمُ

* * *

فجُلُّ مغزاه أنها
تحمل لى غيظاً دفيناً
فإذا بالقلب منها يشتعل
ولظى الهيام يستعر
فتبدؤنى مُغازِلة
قولا ولفظاً سادرة .

١٠٤

أيدور فى خُلْدِكَ أبدا
أنه فى استطاعتى
أن أقول عن حياتى
ما يُفرح الأعادى
فأتحدث عن حبيبتى
بالسوء والضر معاً
وهى التى أعزها
أكثر من عيونى
كلا وأيم الحق كلا
فما يمكننى أبدا
أن آتى فعلا كهذا
ولو سلمنا جدلاً
أنى فعلت هذا الأمرا
ما كان حبى لكِ
هكذا مبتذلا
ولا قبيحاً هكذا
ولكنك مع تاپو
تبالغان دائماً
فتهولان اليسير
وتجسمان النقير .

١٠٧

إن
مما يسعد المرء
ويفرح قلبه وعقله
أن يتوق إلى الشيء
فى شوق جارف
فلا تحدوه أو تداعبه
كى يقتنيه ويملكه
بارقة من أمل

***

ومصدر غبطتى وسعادتى
اللتين هما فى ناظرى
أغلى من النضار قيمة
أن تفيئى يا لبسبيا
وتعودى ثانية إلىّ
فقد أضنانى فى صبابتك
كل شوق عارم

***

بلى ، لقد برح بى الهوى
والشوق إلى جسمك البض
بيد أنه لم يحدث قط
أن داعبنى الأمل
فى أن تلبى رغبتى
فتعودى إلى حظيرتى

***

أيهـــا اليوم السعيد
أيهـــا المفعم بالبياض
إنك لأنصع ما رأيت
منذ وجودى فى الدنيا
قل لى بربك صادقاً
هل أحسست فى الدنيا بمخلوق
أسعد منى حظاً ؟

* * *

أصدقنى أيها اليوم المجيـــد
ولا تخش لوم اللائمين
أى كائن آنست فى العالم
يمكنه أن يثبت ويقول
إن فى الحياة حظاً
يتوق إليه التائقون
أكثر من حظى هذا ؟
أو هل يوجد فى كنوز الدنيا
ما يطمع فيه المرء
أعظم من سعادتى هذه ؟

٨٧

لو

دارَ حى من الدنيا
يسأل النساء قاطبة
ما رأى واحدة منهن
فى مقدورها أن تدعى
أن شخصاً ما قد هام بحبها
أو أن أمرأ قد جُنَّ صبابةً
بعشقها وغرامها
كما جننتُ أنا
بحبك يا لبسبيا
يا محبوبتى أنا وحدى

* * *

فلو دُرستْ قصص الأولين
وأساطير الحب أجمعها
ما عرفت روعة الإخلاص
الذى فاقت به واتصفت
أسطورة هيامى بحبك
وقصة غرامى بشخصك

٧٠

تقول حبيبتى
لا يروقها امرؤ
كما أروقها أنا
زوجاً أشاركها الحياة
ولو أن جوبيتر جاءها
بمجده وجلاله
وسأل أن يتزوجها
طالباً يدها
لردّته عنها خائباً
يجر أذيال الفشل

* * *

وكذا تقول حبيبتى
إن ما تهمسه الفتاة
فى أذن حبيبها
الصب غراماً فى هواها
لابد وأن يُسجَّل توًّا
على نسمات الرياح
وفوق صفحات المياه
السريعة الجريان

٧٢

لقد اعترفتِ يا ليسبيا
ذات يوم علناً
وجاهَرتْ أمام الملأ
بأن صديقك الأوحد
ليس سوى كاتولوس
وكان من عادتك أيضا
أن تقولى وتردّدى
بأنـــك لا تفضّلى
أحدًا علىّ ولا تؤثرى
حتى ولو أتاك چوپيتر
وطلب صداقتك بنفسه

* * *

وكنتُ يومئذ أحبك يا ليسبيا
لا كما يحب السابلة
سيدةً أو فتاة عابرة
بل كما يحب الأب أبناءه
وكما يحب أيضاً صهره
وهأنذا الآن ياليسبيا
أتمتع منك بالصداقة

ورغم أن عواطفى
على أشدها وتضطرم
ورغم أن قلبى
متأجج بحبك
ويزداد فى التلظّى
والاحتراق والتردى
فإنك فى ناظرى
أحط قيمةً وأقل شأناً

* ° °

أراك تسألين
وكيف كان ذاك ؟
فَرَدِّى عليك دائما
يكون فظاً قاسيا
لأن إهانةً كهذه
إن تلحقْ أبداً محبًّا
دفعته من توها
إلى المزيد فى الهوى
وساقته إلى الحماقة
أو الإقلال من شأن الصداقة

٨٥

إنى أكره وأحب
وأمقت وأود
وخليق بكِ أن تتساءلى
ما العلة فى هذا ؟

* * *

فأقول يا حبيبة قلبى
علم ذاك ليس عندى
ولـكن هـذا أحاسيسى
وأحاسيسى تمعن فى عذابى.

٧٩

« إن ليسبيوس لفتى رشيق »
وما الغرابة فى ذلك ؟
طالما إن ليسبيا
تفضّله عليك ياكاتولوس
وعلى جميع قومك طرا

* * *

ولكن دع هذا الفتى الرشيق
يبيع كاتولوس وعشيرته
إن حظى بتزكية
ثلاثة من معارفه .

٧٥

ألا فاعلمي يا ليسبيا
أن عقلي ضل السبيل
هكذا كما تبصرين
وليس غيرك يا ليسبيا
مسئولاً عما حلّ بي

* * *

فجريرتك يا ليسبيا
قد حطم الإخلاص قلبي
وصيّره خراباً بلقعا
هكذا كما ترين
حتى أنكِ لو أصبحتِ
الآن خير السيدات
لما استطاع مطلقا
غمرك بالأماني الطيبات
ولما أمكنه نبذُ حُبك
مهما اقترفتِ مُنكراً
أو أتيت من الأفعال
أشر ما يخطر بالبال

٧٧

اما بان منك يا روفوس حقاً ؟
أحقاً ، وأنا صديقتك ؟
لقد وثقتُ بك عبثا
وعبثا كنت أثق بك
كلا وأيم الحق كلا
فقد كلّفتنى أغلى الثمن
وكان ثمناً باهظا
إذ قد سمحت لك
أن تتسلل إلى أعماق نفسى
وتضرم النيران فى أحشائى
بعد أن مزقتها إربا
وتسلبنى أنا المسكينة
جل سعادتى وهنائى
أواه . . . واحسرتاه
يا من سلبتنى نفسى
وأقصيتها عنى وأقصيتنى عنها
يا ترياق نفسى وسُمها
وزعاف حياتى القتّال
فيا ويلتى وحسرةً على الشباب
يا من قتلت صداقتى
ودفنت آثارها بيديك .

٧٣

إليك أقول كف
كف وألف مرة كف
كُفَّ أن تنتظر
من سائر البشر
رد الجميل بالشكور
ولا الشكور على الجميل
وإليك أقول إياك
إياك وألف مرة إياك
إياك أن تعتقد
أن من بين البشر
من للجميل عنده قدرُ
من فضة أو ذهبِ
إن الجمائل كلها منكورةُ
فالجميل فعله لا يحتسب
يُنسى ويطويه الزمن
وما فعله منسوب بالتعب
بل حسب عقباه الأذى
فضلا عن المشقة والنَّصَب
وهذه هى الحال معى

فالآن لا يغيظنى
ولا يمعن فى إزعاجى
سوى الذى استأثر بى
ولم يتّخذ له صديقة
إلاّ ىَ من دون البشر

٦٠

أمِنْ لبؤة فى جبال ليبيا
قد وُلدتِ يا قاسية ؟
أم من وحش ذى ستة رءوس
يقبع فى برزخ مسينا
قد نشأتِ يا ضَبُعاً ضارية ؟
حتى تزدرى وتحتقرى
نداء ذا المتضرع
فى أشد ساعات حاجته

* * *

أواه منك يا عاتية
فإن قلبك صخر
فى القسوة المتناهية

٨

أى كاتولوس !
أيها الشقى التعس
كف عن حماقتك
واعتبر ما ضاع منك
كأنه لم يكن
كانت أيامك فيما مضى
ساطعة مشرقة
يوم كانت عادتك
مرافقة حبيبتك
أينما رغبت وحيثما اشتهيت
وكانت يومئذ تحظى بحبي
كما لن تحظى فتاة أبداً بحُبِ
وحيثما كنت يومذاك
تمتعت بفيض المداعبات
التى كنت تمعن فيها
كما تمعن فيها فتاتك
حقاً ما أسعد تلك الأيام
التى أطلّت عليك بمشرقها
بيد أن معشوقتك

بعد كل هذه المتعة والهناء
ما عادت ترغب فيك أبداً
فعليك إذن أيها المجنون
أن تكف عن الرغبة فيها
بل وتعدل عن اقتفائها
فهى تكويك بهجرانها
وإياك ثم إياك أن تعيش
مكموداً حزين الفؤاد
ولا ذليلا مهيض الجناح
ولكن تأسَّ بعقل رزين
وكن حازماً شديد المراس
وداعاً ، حبيبتى ، وداعاً
فكاتولوس الآن حازم
إنه حازم شديد المراس
ولن يلحَّ أبداً فى طلبك
وهو مغلوب على أمره
ولكنك لن تلومى غير نفسك
يوم لا يرغب فيك أحد
حسراتى عليك ولعناتى
أيها المخلوق التعس

ما أتعس الحياة التى تنتظرك !
فمن ذا سيطرق باب مخدعك ؟
ولمن سوف تتبرجين ؟
ومن ستحبينه الآن ؟
وما اسم الحبيب الذى ستنادين به ؟
ومن الذى سترتشفين شفتيه ؟
أما أنتَ يا كاتولوس
فكن حازماً صارماً
ثابتاً شديد المراس

٧٦

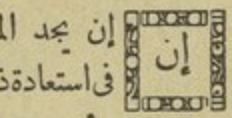

إن يجد المرء لذة ما
فى استعادة ذكرى صنيع قديم
يوم يعتقد أنه صديق صادق
لم يحنث قط فى يمين مقدس
ولم يخدع الناس أبدا
تحت ستار مجـــد الآلهة
فى أى عهد له معهم
ففى حياتك الطويلة إذن ،
مباهج جمة يا كاتولوس
تستطيع أن تسخلصها
من حبك المجحود هذا
فما من جميل أو صنيع
يستطيع أحد فعله
بالقول إن يكن أو بالعمل
إلا وقمت يا كاتولوس
بإنجازه قولا وفعلا حتى تمّ
بيد أن صنائعك وجمائلك
إلى ذلك القلب الجحود
قد ضاعت فى مهب الريح
فلمَ تعذب نفسك يا مسكين ؟
لمَ لا تقطع برأى أخير ؟

لمَ لا ترجع إلى الصواب ؟
ولم لا تكف عن الباساء ؟
رغم عين الآلهة
لا ريب أنه أمر عسير
أن تتخلى بغتة
عن حُب طال عليه الأمد
إنه حقاً لأمر عسير
ولكن لا مناص من فعله
سواء رضيت أو أبَيْت
فهذا وحده سبيل الخلاص
وهذا وحده ما ستعمله
عليك وربى أن تفعله
سواء قدرت أو عجزت
أيتها الآلهة !
لو أن الرحمة من شيمتك
لو أنكم حقاً قد ساعدتم
أحداً من الناس فى الرمق الأخير
فلترعونى فى محنتى
ولئن ثبت لكم طهر حياتى
فلتبعدوا عنى هذا البلاء
ولترحمونى من هذا الدمار
فيا ويحى ويا مصيبتاه
ما هذا الفتور ؟

الذى يدب فى أوصالى
فأخلى قلبى وفؤادى
من شتى مباهج الحياة
إننى ما عدت بعد اليوم أطلب
أن أحظى بحب حبيبتى
أو أنها — وهذا محالٌ
ترضى معى بعلاقة طاهرة
عندئذ أستعيد صحتى
وأتخلص من مرضى الفتاك
أواه ! أيتها الآلهة
حسبك أن تمنحينى كل هذا
مقابل إيمانى وتقواى

٥٨

ليسبيتنا ، يا كايليوس ،
ليسبيتنا التى أحبها كاتولوس
فأحبها أكثر من نفسه
بل وأكثر من جميع أقاربه

* * *

إنها الآن فى مفترق الطرق
وفى الأزقة والحوارى
تقوم بإشباع الشهوات الدنيئة
لنسل ريموس النبيل
ذى العقل الراجح والرأى السديد

١١

أى فوريوس وأوريليوس
يارفيق رَحل كاتولوس
سواء شق طريقه إلى الهند النائية
حيث الشاطىء تتلاطم عنده
أمواج الشرق الصاخبة
أو توغل فى هيركانيا
وبلاد العرب الملساء
وسواء زار السكيثيين
أو البارثيين المحاربين
أو توغل فى السهول الناضرة
التى يصبغها النيل بفروعه السبعة
وسواء عبر جبال الألب الشامخة
ليرى آثار قيصر العظيم
ويشاهد نهر الرين الغالىّ
ويبصر البريطانيين المهولين
القاطنين أقاصى المعمورة
يأيها المستعدان لهذه الأهوال كلها
مهما كانت إرادة الآلهة
أعلِما فتاتى واحملا إليها
هذه الرسالة القصيرة
غير الرقيقة ولا اللطيفة
بلّغاها ألاّ تنتظر منى

حُبًّا كسابق عهدها بي
فيما مضى من الزمان
ذلك الحب الذى بخطئها
حطمته وهوت به إلى الحضيض
كما تهوى الزهرة على حافة المرعى
وقد بترها بحد سلاحه
عندما مر بها المحراث

٤٣

سيدتى ، إليك تحيتى
يا طويلة الأنف
يا بشعة القدمين
يا ذات العيون الكالحة
يا قصيرة الأنامل
يا مبللة الشفاة
يا ذات اللسان غير العفيف
إننى أحييك
يا صديقة مفلس فورمياى
أأنت هى الجميلة الفتانة
التى يتحدث بذكرها أهل الولاية؟
أبكِ تُقارَن ليسبيا حبيبتى ؟
لعمرى ! يا لهذا الجيل !
ويا لقلة ذوقه !
ويا لسوء نشأته !

الباب الخامس

غراميات كاتولوس الأخرى

تطالبنى أميانا الشمطاء
لقاء قبلة واحدة
بعشرة آلاف كاملة
تلك السيدة المفطوسة الأنف
صديقة مفلس فورمياى
فيا ذوى قرباها
وأولياء أمور هذه الفتاة
هيا اجمعوا الأصدقاء ، هيا
ونادوا الأطباء ، هيا
فأميانا ليست سليمة العقل
إنها لا تكلف نفسها
سؤال المرآة مطلقا
عن جمالها أو شكلها

١١٠

كثيراً ما نُذكَر الصديقات الطيبات
بكلمات الإطراء والمديح
إنهن يؤدين العمل
ولهن يُدفع الثمن

* * *

أما أنت فلست صديقة صدوقة
لأنك قد وعدتنى
وباطلاً كانت وعودكِ
أنت تأخذين كل شىء
ولا تعطين أى شىء
وهذه خدعة حقيرة

* * *

فالإذعان أمر مليح
وعدم الوعد شىء جميل
ولكن أخذكِ كل ما تقدرين عليه
وسلبكِ كل ما يملك المرء
ولا تبرين بوعدك لقاء ما تأخذين
ليظهركِ أمامى امرأة
فى غاية النهم والجشع
بما يفوق حد المألوف
بين أسفل الساقطات الخليعات

١١١

أى أوفيليسنا

إن حياة الزوجة مع بعلها
دون رجل سواه
يتوج العرائس بأكاليل المجد
ويهبهن غاية السعادة والهناء.
بيد أن الأفضل لكِ
أن تعيشى مشاعاً
من أن تكونى أمًا
ثم تنجبين من أحد أعمامكِ
أبناء يكونون إخوةً لكِ

٤٨

أى چوڤينتيوس
يا ذا العيون المعسولة
آه لو كان يسمح لى
بالمضى فى تقبيل عيونك
لطبعت عليها ثلثمائة ألف قبلة
ولما اقتنعت بعدئذ
بأنى أخذت كفايتى
كلا وأيم الحق كلا
لا ، ولو كان حصاد قبلاتنا
أكثر من سنابل القمح الناضجة

٥٩

روفا ، القادمة من بونونيا
زوجة مينينيوس
والتى كثيراً ما أبصرتها
بين ممرات القبور
تسرق قرابين اللحوم المطبوخة
من فوق أكوام الحطب

* * *

عندما أقبلت تجرى
خلف رغيف يتدحرج
من بين ألسنة اللهب
أمسك بتلابيبها
عبدٌ لحاد نصفُ حليق

يهيم كايليوس بحب أوفيلينوس
ويهيم كونتيوس بحب أوفيلينا
فالأول متيّم بحب الشقيق
والثانى متيّم بحب الشقيقة
وكلاهما زهرة شباب ڤيرونا
ومثل جميل للأخوة الصادقة

* * *

فمن منهما إذن أزكّى
طبعاً ، أنت يا كايليوس ،
فما أروع صداقتك لى
وما كان أندرها
يوم اضطرمت فى أحشائى
نار متأججة ولهيب مستعر
فليكن الحظ معك يا كايليوس
وليكتب لك التوفيق فى كل حب

٧٨

لجالوس شقيقان
لأحدهما زوجة من أجمل النساء
والثانى صبى آية فى البهاء
وجالوس هذا شهم رقيق

* * *

فإنه خير مساعد فى طريق الحب اللذيذ
يربط بين قلوب الأحبة
فيقود الفتاة المليحة
إلى أحضان الفتى المليح

* * *

لكن ما أحمق جالوس هذا
ألا يرى أن له زوجة
عندما يلقن ابن الأخت
كيف يغتصب زوجة الخال ؟

* * *

بيد أن ما يكدرنى الآن
أن يكون ذاك البصاق القذر
الذى فى فمك النجس

قد لمس الشفاة الطاهرة
لفتاة حرة طاهرة

* * *

ويحك ! فلن يتم هذا بلا عقاب
فستعرف أمرك جميع الأجيال
كما أن شائعات العجائز
ستتخذ منك فريسة لأحاديثها

٧٤

قد سمع جيليوس
ويا هول ما سمع
سمع أن عمه
قد تعود أن يزجر
كل من ينغمس فى الشهوات
أو حتى يتحدث عنها

* * *

وليتجنب جيلوس هذا الزجر
اغتصب زوجة ذاك العم
وهكذا صيّره فى لمح البصر
أخرس كالتمثال لا يتكلم
ومن ثم صار يفعل ما يشتهى
حتى ولو سمحت نفسه يوما
بهتك عرض عمـــه
لما اعترض الأخير
ولما فاه ببنت شفة

٤٥

يقول سبتيميوس
وقد احتضن فى ذراعيه
حبيبته أكمى
« أى أكمى ، أى حبيبتى ،
إن لم أتفانَ فى حبكِ
وإن لم أكن مستعداً أبدا
لأن أمضى فى حبك
طوال سنى حياتى بلا انقطاع
كأقصى ما يكون من الحب عمقا
فليقابلنى وحيداً فى ليبيا
أو فى بلاد الهند المحرقة
أسد مكشر أخضر العينين »

* * *

وما أن قال ذا الكلاما
حتى سعط الحب شمالا
كما سبق أن سعط يمينا
مؤيداً صدق كلامه
وداعياً بأطيب الأمانى

* * *

عندئذ أمالت أكمى رأسها
وألقت بها قليلا للوراء
وقبلت بفمها الوردى ذاك

عيون حبيبها الجميلة السابحة
ثم قالت له وهى هكذا

* * *

« إذن يا سبتيميوس ،
يا حياتى وقرة عينى
هل لنا أن نخلص لهذا السيد
ولا نخلص لأحد سواه
أبداً إلى مدى الحياة
لأن فى نخاعى المنصهر
نار الحب قسماً تضطرم
أعظم وهجاً وأشد لظىً »

* * *

وما إن قلت ذا الكلاما
حتى سعط الحب عن يمين
كما سبق أن سعط عن شمال
مؤيداً صدق كلامها
وداعياً بأطيب الأمانى

* * *

والآن بعد ذا الفأل الحسن
عاشا معاً فى هناء ورغد
متحدين قلبا وقالبا
يرتشفان كئوس الحب مترعة

* * *

وسبتيميوس المسكين فى هواه
لا يفضل على سائر السوريين
ولا على البريطانيين أجمعين
غير أكمى العزيزة وحدها

* * *

وأكمى المخلصة بدورها
لا تشبع لظى حبهـــا
أو نهم ملذاتها
إلا مع سبتيميوس
ولا أحد غير سبتيميوس
فمن رأى فى عمره
أناساً أسعد منهما ؟
ومن رأى أبداً
حباً أسعد من حبهما ؟

١٠٩

تعديتنى يا حياتى
بأن يكون حبنا سعيداً
وبأن يدوم فيما بيننـا
خالصاً إلى الأبد فى عمرنا

* * *

فيأيتها الآلهة العظيمة
امنحيهـا القدرة الكاملة
على البر بعهدها
فتكون فيه من الصادقات قولا
ومن المخلصات قلباً وقالبا

* * *

فيكون من حظنا
دوام هذا الرباط الأزلى
من الصداقة المقدسة
طوال أيام حياتنا

٣٢

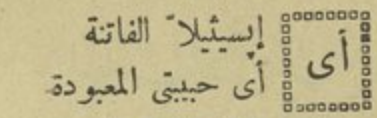
أى إبسيثيلا الفاتنة
أى حبيبتى المعبودة
ومصدر هنائى المنشودة
لكم أشتهى أن أتلقّ أمراً
منك بالحضور فوراً
فأحظى بقربك ظهراً

* * *

فلئن سمحت لى بذا
فهل لذا العطف أن يحظى
بعطف آخر لمحب يتلظى
فلا يصدنى أمام عتبة دارك
معترض ولا عزول حاقد
ولا يستهويك أبداً لتخرجى
مَيْلٌ ولا أمر من الأمور
حتى تظلّ دائماً فى منزلك

* * *

فلو سمحتِ وأذنتِ بالرضا
وأمرتنى لِبَيْتِكِ أن أحضرا
تم هنائى وبلغتُ أقصى المآربا

الباب السادس

مختارات من قصائد كاتولوس

١

لمن أهدى كتابى
وإنه لجديد جميل
وغلافه مصقول بالحجر الخفاف
منذ عهد قريب ؟
إليك ياكورنيليوس
يا مَن تقدر أعمالى
وتعتبر التافه منها
جدير بأعظم التقدير
فمن زمن بعيد
يوم واتتك الشجاعة
من دون سائر الإيطاليين
أن تستعرض فى مجلدات ثلاثة
تاريخ العالم كله
فكانت ، وحق چوپيتر
موسوعات مثقّفة
آية فى دقة الصنع

والآن أهدى إليك هذا الكتيب
راجياً قبوله على علاته
أيًا كانت قيمته
واحتفظ به لنفسك
ويا عذرائى ، يا نصيرتى
ليت كتابى هذا يعيش
ليته يدوم جيلا وأكثر من جيل

١٣

عزيزى فابولوس
إنك بعد أيام قلائل
ستحظى بوليمة عظيمة
لو باركتك الآلهة
فلئن جلبت معك من الطعام
مقداراً طيباً وفيرا
ولم تَفُتْكَ الفتاة الجميلة
ولا الخمر ولا الدعابة
ولا جميع ما يبهج القلوب
فلو جئتنا يا صديقى اللطيف
بكل ما طلبتُ منك
لحظيتَ معنا بوليمة طيبة
فكاتولوس مفلس خاوى الوفاض
نسج العنكبوت خيوطه فى كيسه
مطمئناً ، وقد عفا على الكيس الزمان
بيد أنك ستحصل منى
مقابل هذه الأشياء
على حب طاهر نقى
أو ما هو أحلى من الحب وأبهى

فلسوف أعطيك عطراً
تكرمتْ به عليَّ حبيبتي
إلهة الحب والجمال
وهو عطر لو شممتَه
تمنيتَ يا فابولوس
وطلبتَ من الآلهة
أن تمسخك منخاراً فحسب

٩

أى ڤيرانيوس
يا مَن أوثره وحده
على ثلثمائة ألف صديق
هم جميع أصدقائى

* * *

هل عدتَ حقاً إلى بيتك
وإلى آلهة منزلك
وإلى أشقائك المحبوبين
وإلى والدتك العجوز ؟

* * *

هأنتذا قد عدت
فياله من نبأ تبتهج له نفسى
وكم يكن سرورى عظيما
عند ما أراك سالما
وأصغى إلى صوتك العذب
وأنت تتحدث عن رحلاتك
وعن مخاطراتك ومغامراتك
وعن قبائل الهيبيريين

كما عوّدتنا دائما

* * *

وسأطوق عنقك بذراعى
وأقبل فمك وعيونك النجلاء
ويحى مَن ذا الذى يفوقنى
فى سعادتى وهناءتى
من بين جميع المستمتعين
بقسط أوفر من السعادة ؟

٤٩

يا أبرع نسل رومولوس
الأحياء منهم أجمعين
وجميع الذين ماتوا
وكل من سيحيا بعد ذلك
فى السنوات المقبلة

* * *

أى ماركوس توليوس
إليك يقدم الشكر الحار
كاتولوس أسوأ جميع الشعراء
فبقدر ماهو أسوَؤهم قاطبةً
فإنك خير المحامين أجمعين

٥٢

ماذا دهاك يا كاتولوس ؟
لِمَ لا تعجل بالموت ؟
إن نونيوس سترووما
متقعمس فى مقعد القناصل
وڤاتينيوس يُقسِم بقنصليته
ماذا دهاك يا كاتولوس ؟
لمَ لا تستعجل الموت ؟

٥٣

أضحكنى فى التو والحين
شخص من بين الجماهير
فعندما وجّه كالقوس العزيز
اتهامه ضد ڤاتينيوس
بأسلوب رائع بليغ
رفع ذاك أنمـــله
وصاح فى دهشة المتعجب
« أيتها الآلهة العظيمة
يا له من قزم فصيح ! »

٥٦

أى كاتو ، أيا كاتو
يا له من شيء سخيف مضحك
جدير بأن تسمعه فيضحكك !
فلتضحكَنَّ ملء شدقيك يا كاتو
وبالقدر الذى به تحب كاتولوس
فالأمر غاية فى السخافة
ومثير للضحك جداً

٨٠

أعتذر يا جيليوس
م. كى أفسر السبب
فى أن شفاهك الوردية
تبيض حتى تصير
أنصع من الثلج
كلما استيقظت فى الصباح
أو حانت الساعة الثامنة
فأيقظتك من قيلولتك
فى ساعات النهار الطويلة ؟
لابد أن فى الأمر شىء
فهل حقيقة ما يشاع
من انغماسك فى الرذيلة ؟
فمن الأكيد إذن أن الأمر هكذا
والظواهر كلها تؤيد ذلك

٨١

ألم تستطع يا چوڤنتيوس
أن تجد وسط جموع الناس هذه
صديقاً يروق جماله ناظرك
إلى جانب صديقك هذا
القادم من منطقة پيزاوروم الموبوءة
والذى يزيد لونه شحوبا
عن تمثال مذهب
والذى تعزّه الآن وتؤثره
وتزعم أنك تفضّله على
وتتجاهل أى جرم تقترف ؟

٩٣

لا تحدونى ، يا قيصر
أى رغبة جامحة
فى أن أدخل السرور إلى قلبك
ولا أن أعرف أو أعلم
إن كنتَ أبيض البشرة
أم أسودها ؟

٩٦

لو أن القبر الصامت
يشعر بالسرور واللذة
من جراء حزننا يا كالثوس
ذلك الحزن والأسى
الذى نحيي به حبنا القديم
ونجدده مرة أخرى
وبكائنا الشديد يا كالثوس
على الصداقة الطويلة المفقودة
فلا ريب أن حزن كوينتيليا
على موتها المبكر
أقل من غطتها بحبك لها

١٠١

آن الأوان لآتى إليك
بعد طول التجوال فى مدن كثيرة
وعناء الأسفار فى بحار عديدة
اليوم آتى لأودعك الوداع الأخير
وأحضر مراسيمك الجنائزية
التى تحزن النفس وتهز كيان المرء
فأقدم آخر هدية لك منى
وأخاطب رفاتك الصامتة
دون أن أتلقى جواباً لحديثى
إذ اختطفتك يد المنون
فيا لهفى عليك أيها الشقيق المسكين
يا من سُلبتَ منى وشيكا
بهذه الصورة القاسية
والآن فلتقبلنّ منى
هديتى هذه ، التى بلّلتُها
وخضبتها دموع أخوية حارة
فقد عودنا آباؤنا
أن نقدمها هديةً جنائزية
لتعبّر عن حزننا وعميق ألمنا
سلام عليك يا أخى
ثم وداعاً إلى الأبد .

١٠٥

يكافح مينتولا محاولاً
تسلق جبل پيليوس
ولكن ربات الفن والشعر
يطردنه من فوقه بالمذارى

١٠٦

لو يرى المرء فتى جميلا
فى صحبة تاجر المزاد
فماذا يظن المرء سوى
أنه يريد بيع نفسِهِ ؟

١٠٨

لو أن شيخوختك الشهباء
يا كومينيوس
التى لوثتها حياة الدنس
يُكتب لها الموت
بمحض اختيار البشر
فلست أشك من جانبى
فى أن لسانك عدو جميع الأخيار
سيُقطع أولا وقبل كل شىء
ثم يُلقى به سريعاً
إلى نسر جائع نهِم
أما عيونك فسوف تنزع
ليلتهمها الغراب فى بلعومه الأسود
بينما تنهش الكلاب أحشاءك
والذئاب باقى أعضائك

٤

رفاقى ، وضيوفى
يقول ذلك الزورق
الواقف أمام عيونكم
إنه كانه أسرع السفن
وإن سرعته الفائقة
قد عجزت عن قهرها
كل خشبة طافية
سواء أبحر بالشراع أو بالمجذاف

* * *

ويقول زورقى إن هذه الحقيقة
لا يمكن بأى حال نكرانها
فلا شاطىء البحر الإدرياتى الصاخب
ولا جزر كيكلاديس
ولا رودس الشهيرة
ولا پروپونتيس التراقى المتوحش
ولا خليج پونتس الكئيب
تستطيع نكران هذه الحقيقة

* * *

وزورقى قبل أن يصبح زورقاً
كان حفنة من الأشجار المورقة
وهناك فوق قمة كوتوريس
كثيراً ما كان يبعث حفيفه

بأوراق أشجاره المتكلمة

* * *

فيا أماستريس البنطية
ويا كوتوريس حاملة الأشجار
إن هذا الزورق يقول
إنكما عرفتما هذه الأنباء
وما زلتما تعرفانها جيدا

* * *

ويقول زورقى إنه قد وقف
فوق قمتك منذ نشأته
وغمس مجاذيفه فى بحرك
ثم حمل سيده وأبحر به
عبر بحار عديدة صاخبة
سواء هبّ النسيم
عن شمال أو يمين
أو هبت على جانبى الشراع
ريح هادئة مواتية

* * *

ويقول زورقى إن النذور
لم تُقدَّم قط من أجله

لأرباب الشاطىء والهتـه
يوم عاد لآخر مرة
من جولته البحرية
مباشرة إلى هذه البحيرة الصافية

* * *

ولـكن حدث هذا فى المـاضى
وزورقى يقضى الآن شيخوخته
فى عزلة مريحة
واهباً نفسه لك
يا كاستور التوأم
ولك يا توأم كاستور

٣١

أى سيرميو
أى درة أشباه الجزر
بل ودرة الجزر قاطبة
سواء فى بحيرات نيتون الصافية
أو فى بحره الفسيح
ما أسعدنى وما أبهجنى
إذ أعود لزيارتك مرة أخرى
غير مصدق أبدا
أننى قد غادرت ثونيا
والسهول البيثونية
وأننى أراك ثانية فى سلام

* * *

فأى شىء أكثر غبطة للمرء
من أن تزاح عن قلبه الهموم ؟
يوم يلقى العقل عن كواهله
عبء الأثقال والهموم
يوم نعود إلى بيتنا
مرهقين من عناء السفر
ثم نستلقى على الفراش
الذى طال حنيننا إليه
إن هذه اللحظة وحدها
لخير مثوبة حقاً

لمثل الآلام الجسيمة
التى تكبدناها فى حياتنا
فمرحباً بك يا سيرميو الساحرة
ومرحىً بعودة سيدك
وأنت ، يا أمواج البحيرة اللودية
فلتفرحى أيضاً وتهلّلى
ولتنعمى بكل ما فى بيتنا
من وسائل اللهو والضحك .

٤٧

أى پوركيوس وسوكراثيون
يا يدى بيسو اليُسْرَيَيْنِ
يا محض الوباء والقحط

* * *

أحقا أن پرياپوس
ذلك الرجل البذى.
قد آثركما على ڤيرانيوس وفابولّوس
وكلاهما عزيز علىّ؟

* * *

أحقاً أنكما تنفقان المال
ذات اليمين وذات الشمال
وتقيمان الولائم الفاخرة
الحافلة بكل ما لذّ وطاب
وتسرفان فى تكاليفها الباهظة
جهراً وفى وضح النهار ؟

* * *

بينما على أصدقائى الأعزاء
أن يهيموا فى الطرقات
بحثاً عن وليمـــة تهد رمقهم؟

٣٨

هيا كورنيفيكوس، إن كاتولوس
لمريض يشكو السقم
وعلته تشتد سوءاً
أضعافاً مضاعفة
كلما مر يوم
وكلما انقضت ساعة
بيد أنك لم تُسر عني بكلمة واحدة
تشد بها إزري إبان مرضي
مع أنها لن تكلفك شيئاً
أو تستنفد منك جهداً
لذا تأثرت منك كثيراً
فما هكذا يعامل الصديق صديقه
وحبيبه وعزيزه وشقيقه
إذن فلتمنحني من الألفاظ
ما يُسري عني همومي
وأجد فيه عزائي
وما قد يثير أشجاني
التي أثارتها دموع سيمونيديس.

١٢

أى أسينيوس مارّوكينوس
إنك لاتجيد استخدام يسراك
فتنتهز فرصة ضحكنا وثمولنا
وتسحب من الغافلين مشوشاتهم
أتظن أن هذا مُزاح مقبول؟

* * *

إنك لمخطىء أيها الأحمق
ويا لها من عادة قبيحة سيئة
يوصم ذوقك بالجدب والسقم!
ولو خامرتك ريبـــــة فى قولى
فلتصدق أخاك پوليو
الذى يسره أن تقدّر السرقات
على قدر جميع المواهب بأسرها

* * *

فرغم كونه لا يزال صبيا
إلا أنه مُلِمٌّ بدنيا المزاح والطرب
فعليك إذن أن تبحث الآن
عن ثلثمائة بيت من الشعر

من الوزن الحادى عشر
أو أن تعيد إلى مشوشى
الذى لا يهمنى من أمره
سوى أنه هدية صديق قديم

* * *

ففابولوس وڤيرانيوس
قد بعثا إلىّ من هيبريا
بهدية من المشوشات الساتيابية
فكيف يمكننى ألا أعتز بها
اعتزازى بڤيرانيوس وفابولوس ؟

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

874.2:C369gA:c.1
سلامة، امين
غراميات كاتولوس فطحل شعراء الغزل
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01003790

874.2:C369gA

كاتولوس، غايوس فاليروس.

874.2
C369gA